الفصل الثاني

المقارنة

يسير البشر نحو مصيرهم، تقودهم إنسانيتهم. ويختلف هذا المصير من عصر إلى آخر، فهو لا يتكرر أبداً، ولكنه يحمل سمة مشتركة في كل زمان: إنه يثقل كاهل الإنسان.

فاسيلي غروسمان، السيدة العذراء

obeikandl.com

obeikandl.com

النازية والشيوعية

إن مجرد استخدامنا لعبارات "نظام الشمولية" و "أحد أشكال حكم الشمولية"، يفترِض انتماء بعض الدول ذات التاريخ المميّز إلى أصل واحد، علماً أن هذه الدول أدركت وجود تناقض فيما بينها. ويبقى توسّع هذه الأنظمة التي تمّ التقريب فيما بينها، موضوع نقاش، سواء تعلّق الأمر بالشيوعية، أو البلشفية الروسية التي تمّ استيرادها لاحقاً، أو بعهد ستالين الذي كان أكثرهم نشاطاً. ومن ناحية أخرى، هل ترتبط علاقتنا بالنظام النازي وحده أم أن علينا اعتباره أحد أعضاء العائلة الفاشية التي هي الأكثر انتشاراً؟ وإذا جاء الجواب بالإيجاب، فهل ضمّت هذه العائلة أعضاءً جدد بالإضافة إلى ألمانيا وإيطاليا؟ اسبانيا على سبيل المثال؟

ولكن مهما تنوعت إجاباتنا على هذه الأسئلة، فإن مجرد عملية المقارنة، وسياسة المصالحة التي تتم بين النازية والشيوعية ما زالتا تثيران إلى يومنا هذا مقاومات عنيفة. وهذا يعود لأسباب عدة. السبب الأول بعيد كل البعد عن التحليل السياسي، فهو ناشئ عن المضايقات التي تتكوّن في أعماق كل فرد فينا، عندما يجد نفسه قد تحوّل إلى أحد النماذج عبر التاريخ. وتتحول هذه المضايقات بدورها، إلى جراح عندما يُقحم في تجارب أليمة، والتجارب التي تنجم عن نظام الشمولية لا تخلو أبداً من طعم المرار. فمن وجهة النظر هذه، ستأتي المقارنة بدون شكٍ غير لائقة، وأحياناً مهينة للإنسان. فلن نقول لوالدةٍ ثكلى أن ألمها شبيه بألم العديد من الأهالي البائسين. يجدر بنا الاهتمام بهذا الأمر والتركيز عليه. فكل محنة يخوضها أي فرد فينا يجدها فريدة من نوعها وأشدّ عليه من غيرها. هناك غطرسة في طريقة التفكير لا يمكن للإنسان أن يحتملها عندما يُسلب منه ماضيه، أو يُشوّه لمصلحة اعتبارات غريبة عنه.

كما أننا ندرك أن الإنسان الذي يُلزم بالقيام بتجربة سرية، يرفض أية مقارنة تُطَبَّق عليه وأي تعليق بخصوصها. ينبغي أن تبقى هذه التجربة فوق أي وصف وأية

مقارنة وأن تظل مبهمة ومجهولة لأنها مقدسّة. هذه المواقف تستحق أن تبادر بالاحترام، ولكنها تبقى ضمن النطاق الخاص، فهي لا تعنينا هنا. أما فيما يتعلّق بالنقاش العام فعلى العكس، تبدو المقارنة أنها السبيل الوحيد لدعمه، فكيف لنا أن نؤكد أن هذه الظاهرة فريدة من نوعها إذا لم توضع في مقارنة مع مثيلاتها؟

أما السبب الثاني لرفض المقارنة، فواضح أيضاً، ولكنه ليس في مكانه هنا. فالفرع الألماني للفاشية، ألا وهو النازية و مؤسسته المريعة بشكل خاص، والمقصود منها معسكرات الاعتقال، بات في أعين الكثيرين منا، التجسيد التام للألم. هذه الميّزة الحزينة تضفي على أي حدث نقارنه بها طابع الألم المطلق بدوره. ونتيجة لذلك، سواء انطلقنا من وجهة النظر النازية أو الشيوعية، فإن سياسة المصالحة تتخذ تفسيرين متناقضين. فهي سياسة اعتذار للذين يدّعون القرابة من النازية، وسياسة اتهام بالنسبة لأولئك الذين يعتبرون أنفسهم أقرب إلى الشيوعية. في الحقيقة، إن الأمور أكثر تعقيداً مما تبدو عليه، حيث يجب التمييز في كل معسكر، بين الضحايا والجلادين. لقد أثبتت لنا الأيام أن علاقتنا لم تعد محصورة بأبطال هذه المآسي. بل هناك جماعات، تجد نفسها وبدون أدنى شعور، تلعب هذا الدور أو ذاك، وهذا يعود لأسباب ذات منشأ وطني أو منهجي، مما يضعنا أمام أربعة أنواع من ردود الأفعال المتباينة والمختلفة تجاه سياسة التقارب بين "أوشويتز" و"كوليما". فالذين كانوا جلادين في أحد المعسكرات، نجدهم ضحايا في المعسكر الآخر، والعكس صحيح:

١- الجلادون في المعسكر النازي يؤيدون سياسة المصالحة بين النازية والشيوعية، فهم يستخدمونها كذريعة لهم.

٢- ضحايا المعسكر النازي يعارضون سياسة المصالحة بين النازية والشيوعية، لأنهم يجدون فيها عذراً للجلادين.

٣- جلادو الطرف الشيوعي يعارضون سياسة المصالحة بين النازية والشيوعية، لأن فيها اتهاماً لهم.

٤- ضحايا الطرف الشيوعي يؤيدون سياسة المصالحة بين النازية والشيوعية، لأنها سلاح اتهام ضد جلاديهم.

بالتأكيد هناك حالات استثنائية لهذه الحتمية الفلسفية السياسية، سأعود إليها في وقت لاحق. ولكن وللوهلة الأولى هناك مجال كبير لتخمين رأي أحدهم حول موضوع ما، ذلك إذا عرفنا إلى أية مجموعة ينتمي. بالنسبة للمنشقّين والمعارضين للنظام الشيوعي الذين ظهروا في السنوات العشرة الأخيرة من الحكم، فإن سياسة المصالحة كانت تسير بصورة طبيعية إلى درجة دفعت "جيليو جوليف"(١)، والذي كان آنذاك غير مشهور، إلى الاكتفاء بتأليف كتاب بعنوان (الفاشية). جاء هذا الكتاب محاولة منه لمهاجمة النظام الشيوعي في بلغاريا، وقد تناول موضوعه الحركات السياسية التي قامت في دول أوروبا الغربية في الثلاثينات. فحظّرت الرقابة نشر هذا الكتاب، حيث أدركت ما يرمي إليه الكاتب الذي طُرد من عمله إثر ذلك. وفي عام ١٩٨٩ كتب "جيليو جوليف "، في مقدمة الكتاب نفسه، الذي سُمح بنشره بعد سقوط الأنظمة الشيوعية، بعد أن أصبح بالإمكان تسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية: فالقطة هي القطة، وقد تحدّث في هذه المقدمة عن التطابق المطلق بين نظام الشمولية بنوعيه، حسب الرواية الفاشية وحسب روايتنا الشيوعية"، فإذا لمسنا اختلافاً فسيكون لصالح الفاشية، "ليس بسبب الانهيار المبكّر للأنظمة الفاشية، بل لأنها تأسست في وقت متأخر. وهذا يثبت أن هذه الأنظمة ليست سوى تقليدٍ باهت، وانتحالٍ للنظام الشمولي الحقيقي، الأصلي، الكامل، والتام"[1].

أما أولئك الذين يرون أنفسهم قريبين من الحجة أو من السلطة الشيوعية، في الشرق كما في الغرب، فإن موقفهم مناهض لسياسة المصالحة؛ على غرار أولئك الذين يصنّفون أنفسهم ضمن ضحايا هتلر، وهم اليهود والغجر. قد يلتقي هذان التياران المتعارضان، (إذ يمكن أن نكون بآنٍ واحد من مؤيدي اليهود ومن مؤيدي الشيوعية لأسباب سياسية باتت معروفة). ويمكن للألمان من ناحيتهم أن يبرزوا في كلا الموقفين اللذين أوجدهما النظام النازي، وأن يدللوا - كما ظهر ذلك من خلال "نزاع المؤرخين" الأخير-عن التشابه أو الاختلاف الكائن بينهما.

---

(١) الباحث في علوم التاريخ والسياسة (المترجم).

إن مواقف المقاومة تلك، والتي لها مبرراتها المقبولة على الصعيد الخاص (فمن ذا الذي يريد الانتماء إلى عائلة الشيطان؟)، يجب ألا تقف حائلاً أمام المؤرخ أو أمام مؤيِّد النظريات السياسية في القرن العشرين. فالمقارنة هي وسيلة ضرورية للمعرفة في هذه المجالات. فهي التي تكشف عن أوجه الشبه والفروقات. و يُعْتبر العلم انتهاكٌ فهو لا يقبل بعزل الأحداث عن بعضها؛ في حين أن من عايشها شخصياً، يجد لديه نزعة للتمييز فيما بينها. يجدر بالحكم الخُلُقي أن يتبع من جانبه خطوات المعرفة بدلاً من أن يسبقها. وأعتقد شخصياً أن هذا هو الرأي الحالي للمؤرخين وعلماء الاجتماع بالإجماع، والذين ناقشوا الموضوع بأدق تفاصيله، ومن باب أولى رأي المجتمع في مجموعه، في فرنسا كما في باقي البلدان الأوروبية. إنه نفس الموقف الذي اعتمدتُهُ في الصفحات السابقة.

ولكن هذا لا يبرر أبداً مفهوم الشمولية. فالمفاهيم غير موجودة في الطبيعة، وهي لا تنتظر اكتشافنا لها. لذا فإننا لا نجزم بصحة أي مفهوم، لكن يمكننا أن نشهد بفائدته إلى حد ما. فإذا كانت "الشمولية" تساعد في تحديد السمات الأساسية للنظامين النازي والشيوعي، فإن استخدامها أصبح واضحاً؛ أما إذا اقتصر على الصفات الظاهرية، فإنه بالإمكان التخلي عنها. علينا إذاً اكتشاف كنه المقارنة، أين تبرز وأين تفشل.

يتم تبرير سياسة المصالحة أولاً، من خلال منظور نموذجي شامل للأنظمة السياسية. ويتعارض نظام الحكم المطلق (الشمولية) مع النظام الديمقراطي بصورة لها دلالتها؛ كما يتميّز بشكل واضح عن سائر الأنظمة الاستبدادية التي هيمنت في الماضي. لن نعود مرة أخرى إلى سرد مفصّل للصفات التي استعرضناها سابقاً، كالحاجة إلى مرحلة ثورية، وتحويل الاستقلالية الجماعية إلى محض واجهة، ونبذ الاستقلالية الفردية، وتفضيل الأُحُدية على التعددية على كافة المستويات، واعتماد الصراع كحقيقة للحياة، وإلغاء جذري للفوارق بين الفئات وجعلها هدفاً للمجتمع، فهذا يتطلب تصفية حقيقية لفئات كاملة من الشعب، وتعميم الإرهاب، والشعوب المبرمجة. كل هذه السمات هي في آن واحد، مشتركة وجوهرية.

ثم ننتقل إلى تبرير سياسة المصالحة على الصعيد التاريخي البحت، حيث لا يمكن الإلمام بتاريخ النصف الأول من القرن في غياب هذا التشابك المعقد للأحداث. لن يصل بنا الأمر إلى تأكيد أن النظام النازي لا يعدو كونه ردة فعل ضد البلشفية، إننا بذلك ننفي قوة تأثير الأعراف المحلية: لم يأت تصرّف "رونان" صدفة عندما قرر أن يكون مركز حلمه في ألمانيا، ولم تكن صدفة عندما تكهّن "توكفيل **Tocqueville**" لـ "غوبينو"[١] أن كتابه حول (التباين بين الأجناس) سيلقى شهرة كبيرة. ومع ذلك لا يسعنا إلاّ أن نلحظ العلاقة الوثيقة والمتداخلة بينهما سواء من أجل الاقتتال أو المحاكاة، يأتي هذا التداخل تارة بصورة سرية، كما حصل عندما نقل الألمان فكرة تنفيذ معسكرات الاعتقال عن الروس، وتارة أخرى بصورة علنية كما في الميثاق الألماني السوفييتي.

يمكننا القول إن الشمولية قد بلغت أوجها في أوروبا في شهر آب من عام ١٩٣٩، وفي شهر حزيران من عام ١٩٤١، عندما وقّع كل من الاتحاد السوفييتي وألمانيا على مجموعة من المعاهدات تتيح لهما تقاسم دول أوروبا. وبالفعل، قام الاتحاد السوفييتي بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤١ بالاستيلاء على دول البلطيق، وأجزاء من رومانيا وبولونيا وفنلندا. أما ألمانيا النازية فقد سيطرت على الدول المتبقية من أوروبا، باستثناء بريطانيا العظمى، حيث تم ضم بعض الدول، والاستيلاء على البعض الآخر، ورضيت عدة دول بدورها كحليف منقاد، في حين حافظت البقية على موقفها الحيادي الموالي لهتلر. فلو استطاع هتلر الاكتفاء بهذا الوضع، ولو عمل على ترسيخ ما حصل عليه وأحسن تنظيمه، لبقيت أوروبا حتى يومنا هذا بين أيدي ورثته. وإضافة إلى ذلك، فقد خاض كلا النظامين في نقد مشترك للديمقراطية الحرة والاستقلالية الفردية؛ حيث تلقّيا تحريضاً موازياً للمجازر التي تمت خلال الحرب العالمية الأولى.

يجب أخيراً أن ننوه أن كلا النظامين النازي والسوفييتي، يستجيبان أيضاً للمعرفة المنطقية. ويجدر بنا التركيز على هذه النقطة، حتى لا يفهم العكس. ويعود

---

(١) وكلاهما من رجال السياسة والمؤّلفين الفرنسيين (المترجم).

السبب في تحفظنا باعتبارهم كأنظمة تعتمد المنطقية إلى كوننا نولي العقل بعض النفوذ، ويصعب علينا من جراء ذلك الاعتراف بأن الأفعال التي تمّ الحكم عليها بأنها أعمال شنيعة، قد يكون لها صلة بالمنطق والعقل. وعندما نطلق تسميات معيّنة على الأعمال المريعة، مثل تلك التي نفذها كلُ من ستالين وهتلر على أنها "طائشة" أو "ذهانية" أو "لامنطقية" أو أحياناً "شيطانية"، فإننا بذلك نقيم حاجزاً بيننا وبينهم في محاولة لا واعية منّا لحماية أنفسنا، وذلك بوضع عناصرهم على هامش الإنسانية، فمن يتصرّف بهذا الشكل لا بد وأنه مصاب بالجنون، إذ لا يستطيع إنسان طبيعي أن يقوم بمثل هذه الأعمال. وهذا ما يمنحنا شيء من الأمان ويحمينا من الوقوع ضحايا لتصرفاتهم.

إذاً فالعقل يخدم بلا أي تمييز كلاً من الخير والشر، فهو مطواع لهما، ومستعد لخدمة أية غاية. لاحظ "بنجامان كونستان " مع بداية القرن التاسع عشر: "لقد تمّ تسليم المسيحيين إلى الحيوانات المفترسة، وإرسال اليهود إلى المحرقة، وذلك تحت شعار أن العقل لا يخطئ".[2] ونورد هنا على سبيل المثال واقعة حقيقية، فلقد قرر "ستالين" الحكم على طبقة الفلاحين الأثرياء والموجودين على أكثر الأراضي خصوبة في روسيا، الحكم عليهم بالموت جوعاً. كان قراراً منطقياً ناتجاً عن تصورات ستالين الخاصة به، والمتعلقة بطبيعة الدولة السوفييتية، وبالدور الذي يفترض أن تلعبه طبقة الفلاحين، إلى جانب وظيفته كرئيس؛ هذه الوظيفة ليست سوى استمرار للسياسة التي أوجدها "لينين" غداة قيام ثورة ١٩١٧، سياسة تغيير عنيف للمجتمع. فلا مبرر هنا للحديث عن اللامنطقية. والأمر سيان بالنسبة للتصفية الجسدية لليهود على يد هتلر، ولكن ضمن سياق مختلف، إذ أتى قراره كمبادرة منطقية ضمن مشروع تغييره للعالم. أما فيما يتعلّق بالتصورات، والرسوم، والمعتقدات، والقناعات التي تستخدم كأساسٍ للأعمال، فهي لا تدخل تحت بند المنطق أو اللامنطق، ولكنها صحيحة، وصادقة، ومعبّرة و إيحائية إلى حدٍ ما. وتختلف تفسيرات العالم عن بعضها بالدرجة لا بالطبيعة، فهي ليست صحيحة ولا منطقية.

وفي هذه النقطة أيضاً أراني أختلفُ مع "ريمون آرون" في وجهة نظره المدرجة في مؤلفه (الديمقراطية والشمولية)، الذي كتب فيه موضحاً: "إن المبادرة بحد ذاتها

[إبادة اليهود]لا منطقية قياساً مع أهداف الحرب، تماماً كما كانت عملية التطهير الكبرى بالنسبة لأهداف النظام السوفييتي"[3]، هذا التأكيد بحد ذاته بعيد عن العقل، فقد قام "آرون" باختيار أهدافٍ بدت له هو شخصياً منطقية، ولكنها لم تكن كذلك بالنسبة لستالين وهتلر، فقد كان على "آرون" أن يأخذ بأهدافهما. فأعمالهما لا تخدم أهداف الدولة النازية أو السوفييتية، ولكننا لا نملك أي دليل مسبق يثبت لنا أن غايات الرئيسين كانت في هذا الاتجاه، أي في خدمة أهداف الدولة. فمن وجهة نظرهما الشخصية، ووفقاً للأهداف التي وضعاها نصب أعينهما، جاءت اختيارات كل من "ستالين" و"هتلر" للأسف، منطقية، مع أنها أكثر جرماً، وهي لا تختلف عن وسيلة الركوب التي نختارها يومياً لإدراك غايتنا. يجب أن نذكّر هنا أن "آرون" قام بتحليل أوضح في كتابات أخرى، للمنطقية الموجودة في هذه التصرفات والتي تبدو ظاهرياً مجردة من أي منطق.

لسنا بحاجة هنا لإقحام فئةٍ جديدة منفصلة لتقديم تقريرٍ عن هذه الأعمال أو عن "هتلر" و"ستالين" فقط، كما أننا لسنا بحاجة للتسليم بوجود "شر جذري" مختلف من حيث النوع عن كل ألوان الشر التي عرفتها البشرية عبر التاريخ، "الشر لأجل الشر"، وكأنه مستوحى من الشيطان نفسه. فقد بلغ الشر في نظام الشمولية أقصى درجاته، ولكن دون أن يتخذ طابعاً "جذرياً" بالمعنى الحقيقي للتعبير؛ وتبقى الحكمة المأثورة "لسقراط"(١) التي تقول أن الإنسان الذي يتمنى الشر لا وجود له على الأرض، تبقى قائمة حتى لو اضطررنا لتعديل الحكمة، بإضافة أن طموحنا للخير يمكن أن يقودنا إلى التصرف السيئ والشرير تجاه الآخرين. فكل تصرّف مهما كان يستحق الشجب، له أسبابه. كتب "مونتسكيو"(٢) من جانبه: " لا أحد يولد شريراً بالفطرة، لا بد من وجود سبب للشر، وغالباً ما يكون السبب مرتبطاً بالمصالح"[4]. ومع ذلك، فهذا لا يعني أن كل الأحداث عبر تاريخ البشرية قابلة للتفسير؛ علماً أننا يجب ألا نستغني عن استخدام العقل كأداة تحليل.

(١) الفيلسوف اليوناني الشهير (المترجِم).
(٢) المؤّلف الفرنسي (المترجِم).

إن ضابط المخابرات السرية التشيكي الذي حكم بالإعدام على "الأعداء" كان على يقين من مساهمته في نشر الخير، و مقتنعاً بتصرفه العقلاني. فكما قال "روني برومان Rony Brauman": " لم يأت عمله نتيجة تعطشه للشر المبهم، ولكنه كان مندفعاً وراء إحساسه بالواجب، واحترامه الكامل للقانون، وللمراتب الاجتماعية في الدولة[5]". إن مقترف الأعمال الشريرة يعتبر نفسه كما يعتبره أقرباؤه، مقاتلاً من أجل الخير. حتى أن" هتلر" نفسه، الذي يجسّد في أعيننا الشر الكامل، لم يكن يحتمي بذلك. فنحن لا نجد سوى النوايا الحسنة على طريق الجحيم. ومن وجهة نظرنا، أي تلك التي تتعلّق بالدوافع النفسية الفردية، نعتقد أن "مرض العصر" الذي يراودنا ليس بالجديد ولا يتصف بأية خصوصية؛ إنها التركيبة السياسية للشمولية، والعقلية العلمية التي ترمي إليه، هي الجديدة والمسؤولة عن كون الأسباب الأولية تقود إلى هذه النتيجة المفجعة. أما فيما يتعلّق بالأفراد المسؤولين أو غير المسؤولين عن إنجاز أعمال الشر، فإنهم لا ينتمون إلى أنواع مختلفة، ولكن بعضهم نجح في السيطرة على إحساسه بإنسانيته حيث فشل آخرون.

قد يشترك الجميع في دوافع الأعمال الإجرامية هذه، وقد لا يشتركون. فعملية الفصل الهادفة بين مجموعة تصرفات يكون فيها المنطق ذاتياً (أي تكون موجودة من خلال الرؤية الفردية)؛ أو يكون المنطق بين شخصين والتي يمكن قبولها بحق من قبل المعاصرين أو علماء التاريخ اللاحقين. في هذه الحالة فقط، يمكن للاتجاه الثاني من العقلانية أن يتحوّل إلى شرعية. إن الاستنتاجات التي خلص إليها "هتلر" لا تبتعد عن المنطق حسب وجهة نظره الشخصية، فهي تنطلق في الأساس من ملاحظات لا تقبل الجدل، وكدليل على ذلك، نسبة اليهود الكبيرة الموجودة في الإدارة الأولية للحزب البلشفي؛ ولكن هذه الاستنتاجات لا يشترك فيها أحد، فهي لا تتوافق مع الحدس الأخلاقي المشترك عند الجنس البشري.

وإذا انطلقنا بتفكيرنا من منطق الدولة فحسب، يمكن أن ندرك ضرورة فرض "عدو" على البقية الباقية من الشعب، وتجريده من كل ثرواته، ومن ثمّ استعباده؛ ولكن سياسة إبادة شعبٍ ما بحد ذاتها، لا تشكل دعماً للسلطة، بل إنها تتسبب في

خسارة الدولة من خدم أكفاء ومخلصين، وأيدٍ عاملة مجانية وفعالة (لا سيما في حالة الحرب). نلاحظ أيضاً أن هذه الأفعال تتطلب السرية التامة والتمويه، لأنها لا تناسب أولئك الذين لم يتقبلوا منطق الحكم المطلق بعد، وما زالوا ينتظرون أي تعديل. في حين أن "ليلة الكريستال"، التي كانت نموذجاً للاضطهاد الصادر عن الفئة المعادية لليهود، قد حققت نسبة كبيرة من الدعاية، ويبقى "الحل الأخير" سراً تحافظ عليه الدولة للأبد. ويتكرر المشهد نفسه في روسيا، حيث تتم علناً محاربة جميع الخصوم والمنافسين؛ ومن أجل الدعاوى التي تقام ضد أعضاء الحزب الشيوعي من ذوي المراتب العليا، توجَّب انتزاع اعترافاتهم، أو بصورة أدق، استدعى الأمر حملهم على الاعتراف بجرائم خيالية لم يرتكبوها لكي تتم إدانتهم.

كل هذا صحيح ويفسر تحفظاتنا. أما من يمسك بزمام السلطة العليا فإنه يستطيع القيام بتصرفات بعيدة عن منطق الدولة التقليدية، دون أن يتحول إلى إنسان لا عقلاني؛ فالخير الذي يطمح إليه قد تغير ولكنه لم يختفِ. والأعمال التي ذكرها "آرون" لا تحيد عن المنطق، حتى لو لم تندرج في نطاق المنطق في دولة لا يحكمها نظام الشمولية. وتفسير ذلك أنه في المشروع الشيوعي، يُشترط إخضاع إرادة كل أفراد الشعب لإرادة الحزب الحاكم، والمتمثّل برئيسه؛ ويستوجب ذلك محق أية شرعية لا تصدر عن سلطته. هذا التشدد يُفسّر الوضع المنافي للعقل، ألا وهي إدارة دعاوى وقضايا موسكو، وقتل الشيوعيين الأكثر إخلاصاً لمبادئ الحزب باسم الشيوعية.

يبدو لي أن الأمر يشبه تماماً موضوع إبادة اليهود، الذي يصنف في مقدمة الجرائم النازية البشعة. ففي وقت معيّن من تاريخ الحرب، كان موضوع إبادة اليهود الغاية الأبرز في ذهن "هتلر". هناك مؤشر لوجود منطق آخر يقدمه لنا هذا التشابه في قرارات كلٍ من "ستالين" و"هتلر"؛ فالمعروف أن "هتلر" كان يأمر بخطف قطارات الجيش، ليرسلها إلى معسكرات الموت لتضاف كضحايا يهودية جديدة إلى الضحايا الموجودة سابقاً. ولكن ما نجهله هو أن "ستالين" قد خصص أربعين ألف عربة ومئة وعشرين ألفاً من رجال البوليس السري السوفييتي لترحيل الشيشانيين [١]

(١) مسلمي القوقاز الشرقية (المترجِم).

والإنغوش [١] والتـاتـار [٢] من كـريمة[٣] إلى آسـيـا، في الوقت الذي كـان الجـيش الأحمر فيه بأمسّ الحاجة للرجال والعتاد. هل يتسم هذا العمل بأنه منافٍ للعقل؟ بالطبع لا: فكلاهما كان ينظّم عمله وفقاً لهدف أولوي ضمن قائمة أهداف مدرجة في برنامجه.

مهما كانت الدوافع الخاصة لمثل هذه الأعمال المشهودة، فهناك ملاحظة إضافية تفرض نفسها بهذا الصدد، أنها نُفذت من خلال إرادة فرد واحد، "ستالين" أو "هتلر"، بدل من أن تتأتى ببساطة عن المنطق المجرد لنظام الشمولية. لقد انهار النظام النازي بموت "هتلر"، لذا لا مجال لإجراء أية مقارنة هنا؛ ولكننا لا نستبعد أن دولة مثل ألمانيا، يقودها شخص مثل "غورينغ **Göring**"قد أبقى على معسكرات الاعتقال وتخلّص من مراكز الإعدام. ولكن في روسيا، بالمقابل، يبدو أمر المقارنة يسيراً، فقد تمّ تأسيس الإرهاب في عهد "لينين" منذ الوقت الذي حققت فيه الثورة انتصارها، واستمر الإرهاب مكثفاً وبشكل دوري حتى موت "ستالين". ومع ذلك، لم تقم أية دعوى ولم يسمع بأي حادث اغتيال لشخصيات هامة من الحزب، قبل أحداث "كيروف"[٤]، أو بعد "بيريا "[٥]، فخلال الفترات التي سبقت هذه التواريخ أو تبعتها، كان يصدر الأمر بإقالة الشخصيات السياسية المبعدة عن السلطة، وفرض الإقامة الجبرية عليها، ولكن لم يتم أبداً إكراههم على الاعتراف بجرائم وهمية لم يقترفوها.

إذاً، لا يمكن فصل هذه الأعمال المنجزة عن الإرادة والحرية الفردية، فستالين هنا وهتلر هناك؛ ومع ذلك لا يمكن وصفهم بأنهم أناس لا منطقيون. وفي هذا المجال ألتقي مجدداً مع "آرون" الذي يتكلم هنا عن "تدخّل الشخصية"، فهو يسلّم أن حرية الفرد غير قابلة للتصرّف، إذاً فالتصرفات البشرية هي أيضاً نتاج إرادة

(١) شعب القوقاز (المترجِم).
(٢) الشعب المقيم على نهر الفولغا الأوسط (المترجِم).
(٣) جمهورية أوكرانيا – شبه جزيرة في روسيا (المترجِم).
(٤) وهي مدينة على نهر الفياتكا في روسيا (المترجِم).
(٥) رجل سياسة روسي تمّ تعيينه عام ١٩٤٢ وزيراً لأمن الدولة ووزيراً للداخلية، تم إعدامه بعد موت ستالين عام ١٩٥٣ (المترجِم).

الفاعل. هذا التدخل يستوجب منّا الأخذ بعين الاعتبار نوايا أفراد مثل ستالين أو هتلر – ليس الهدف هنا أننا نفضّل التفسير المقصود عن التفسير الوظيفي– وفقاً لعبارات استخدمت في نقاش قديم، إنما لرفض اعتبار هذين التعبيرين على أنهما حصريان فيما بينهما.

لقد قام أفرادٌ بالإعداد لهذه الجرائم البالغة الخطورة وتنفيذها. ولكن المسؤول المباشر هنا هو "القانون" (إذا صح التعبير) الساري في نظام الشمولية: فهو الذي نص على تمركز السلطة بيد شخص واحد وضَمِن له الحصانة الكاملة. اضطر ستالين للتخلّص من الحرس البلشفي القديم، وكذلك اضطر لإدخال الإرهاب إلى كافة مستويات الحياة الاجتماعية، سعياً منه لتحقيق نظامٍ كامل. أما هتلر، فبقي مخلصاً لحلمه الذي لم يكن محصوراً بتدعيم نفوذ ألمانيا فحسب، بل تعداه إلى تطهير " الكرة الأرضية" من اليهود. إنها تركيبة نظام الحكم المطلق التي أسهمت بتنفيذ هذه المشاريع الإجرامية، وتسببت بموت ملايين البشر.

obeikandl.com

التباين بين النظامين

إن درجة القرابة بين النظامين النازي والشيوعي لا تقبل الجدل، فهي لا تكتفي بتبرير المقارنة بينهما - إذ إن المقارنة تمتلك على كل حال شرعية أداة المعرفة- بل أيضاً إدراجهما كتصنيفات ضمن نظام مشترك، ألا وهو الشمولية (أو الحكم المطلق). أما نقاط التباين، فهي لا تقل أهمية عن أوجه الشبه بينهما، إذ تبيّن أن لها نتائج على التحليل النموذجي للأنظمة، كما أن لها تأثيراً على دراسة التطور التاريخي للقرن العشرين.

يمكننا الإلمام بموضوع تباين هذين النظامين إذا أدركنا أن حقيقتهما تتشابه في أكثر من نقطة. هناك دوماً مسافة بين برنامج الحزب الذي يتصدر صفحات الصحف أو كتيبات الدعاية، وبين الحياة اليومية لرعايا الدولة الشمولية؛ هذه المسافة تبدو أكبر في النظام الشيوعي عنها في النظام النازي. فالبرنامج النازي يكشف حقيقة النظام النازي بينما يتحفظ النظام الشيوعي حول كنهه الذاتي. ولكن بما أن هذين النظامين متشابهان، فإنه عندما يكشف النظام النازي حقيقته فإنه يكشف بالتالي حقيقة النظام الشيوعي. وهنا تكمن أول نقطة خلاف هامة بينهما: فالفكر الشيوعي أكثر بعداً عن الحقيقة من الفكر النازي، وبذلك فهو يحثّ على استخدام العنف، وفي وقت من الأوقات، على بذل الجهد المكثّف بغية إخفاء الهوة بين العالم وتصوراته. فالنظام السوفييتي كاذب، مخادع، مسرحي أكثر من النازي.

فعندما نضع في المواجهة كلاً من الفكرَين الشيوعي والنازي، يمكن أن نعتقد، حسب العبارات الدعائية السوفييتية أن الشيوعيين قد اختاروا السلام، بينما اختار النازيون الحرب. في الواقع، إن هدف كل من السياسة الشيوعية والنازية هو التوسع الامبريالي. وبهذا الصدد فإن الفكر النازي يصف العالم الشيوعي بشكلٍ أفضل مما يفعله الفكر الشيوعي. لكن لا يتساوى هذان النظامان السياسيان من حيث قوتهما: حيث يُعتبر هتلر المسؤول الوحيد عن إشعال الفتيل الأول للحرب العالمية الثانية، علماً أن توقيعه على المعاهدة مع الاتحاد السوفييتي قد شجعه على هذا الخيار.

لا تنتمي الشيوعية فقط إلى المثل الأعلى للسلام عبر دول العالم، إنما إلى المساواة أيضاً. لكن المجتمع الشيوعي هو أبعد ما يكون عن تطبيقه لمبدأ المساواة، ويعود السبب الأوّل في ذلك إلى وجود أفرادٍ فيه أكثر ثراءً من غيرهم، أو أكثر شهرة، أو أكثر نفوذاً. وهذه صفات نجدها في المجتمع الديمقراطي؛ أما السبب الثاني فيعود كما ذكرت ذلك سابقاً، إلى أن هذا المجتمع قد كوّن في داخله نظام الامتيازات والطبقات الاجتماعية، كما كان الأمر في عهد القياصرة. وقد دوَّنَت مراقِبة الحقائق والمهتمة بالأحداث السوفييتية خلال الثلاثينات "مارغاريت بوبر نيومان" ملاحظاتٍ تعبّر فيها عن دهشتها لرؤيتها أكثر من خمسة نماذج للترف، حسب تدرّجها في السلم البيروقراطي، تقضي إجازاتها في المناطق المخصصة لموظفي إحدى الوزارات. وبعد عدة سنوات، تُنفى هذه المراقِبة إلى معسكر الاعتقال، لتكتشف فيه استمراراً لنظام التنضيد: حيث يتم تهيئة أربعة أنظمة غذائية للنزلاء على اختلاف أهميتهم! لا ترشد المنهجية الشيوعية بشكل علني إلى إقامة الشعائر الدينية للإنسان الكامل والمميز؛ ومع ذلك فقد تمّ تنظيم الأمور داخل البلاد بشكل يتلاءم مع توقير أصحاب المقام الرفيع من أعيان الدولة. وهناك طبقة اجتماعية، تدعى بالـ "الطبقة الجديدة " -ينتمي إليها عظماء الحزب، والجيش، والبوليس السياسي- تتمتّع بالحرية والنفوذ التي سُلِبت من عامة الشعب. ويضاف إلى ذلك أن سياسة الدليل "**Vozhd**"بعيدة جداً عن برنامج أنصار المساواة، وهي بذلك تسبق القائد هتلر فيما يتعلّق ببعده عن شعارات المراتب الاجتماعية العلنية التي يلوّح بها النظام النازي.

وانطلاقاً من هذا التفاوت بين النظرية والتطبيق في النظام الشيوعي، يمكننا تفسير فارق آخر لمسناه مراراً، وهو أن السجناء السياسيين في المعتقلات النازية يعلمون تماماً سبب وجودهم فيها، بينما رجال السياسة الشيوعيون والأتباع المخلصون في الاتحاد السوفييتي، لا يعلمون سبب إقصائهم. وهذا ما يولّد الموقف المؤثّر لبعض الحكام الشيوعيين في الثلاثينات، فهم يستنجدون "بستالين" قبل طلب العفو من جلاديهم، إنهم لا يزالون مخلصين للحزب في الوقت الذي يعاقبهم فيه؛ فالحزب دوماً على حق، لذا يفترض بهم الحكم على أنفسهم بالموت من أجله.

وعلى صعيد آخر، يأتي البرنامج الشيوعي ليفضح حقيقة النظام النازي. هذا النظام الذي يدّعي إجراء الإصلاحات على القيم التقليدية، وإعادة وضع الأفراد في مكانهم المناسب، وتثبيت جذور الفرد في الجماعة؛ فهو يريد أن يسبق النظام الشيوعي في تصديه للتحديث. ولكن في مجال التطبيق، تأتي متطلبات الجماهير، والتجديد، والتصنيع، لتحرير الأفراد من هويتهم التقليدية وتحويلهم إلى عناصر مجهولة الهوية ضمن الجماعة. فالثورة التي قام بها النظام النازي ليست أكثر أمانة منها في النظام الشيوعي؛ ومن هنا نشأ الصراع الأخير في ألمانيا بين أنصار النازية والمحافظين.

يتردد إلى مسامعنا أيضاً أن البرنامج النازي مناهض لـ"عصر الأنوار"، في حين يدعي الشيوعيون أنهم ورثة هذا العصر. وتأتي هذه العبارة لتبسّط الأمور. "فالأنوار" تلائم أفكاراً كثيرة، إنها تتضمّن المادّي (هيلفيتيوس) (١)، وناقده (روسو)(٢)، والمشروع العلمي الذي يسعى إلى إخضاع كل شيء للحتمية، والبرنامج الإنساني الذي يعرّف الإنسان من خلال حريته. فالنازية تعتمد المذهب العلمي بنفس القدر الذي تعتمده الشيوعية (جاء الدور على النازية ومنهم هتلر نفسه، للتستّر على أجدادهم)، فكلاهما مناهض للعرف الإنساني. ونجد مجدداً أن التباين أكثر ما يتجلّى في المسافة بين النظرية والتطبيق عنه، في طريقة تطبيقه في كلا البلدين. بالمقابل، إن مراجع العرف الرومانسي والمذهب الصوفي المتعلق بالأرض والأموات، والأبطال الوثنيين في القرون الوسطى، تلك ميزّات خاصة بالمنهج النازي وحده، فبرنامج الشيوعية يفتقر إليها (غير أنها حاضرة في عقل بعض المنتمين إليها).

في الحقيقة، يعتقد كل من النظامين الفاشي والنازي أنهما ينتميان إلى حزب اليمين، بينما تدعي الشيوعية انتمائها إلى حزب اليسار؛ فكل حزب من هذه الأحزاب يستمد دعمه من طبقات الشعب التي تجد صداها في هذين النظامين، جرياً على العادة. ولكن يجدر بنا هنا الوقوف عند الأحداث التي تغطيها الكلمات.

---

(١) المزارع والفيلسوف الفرنسي (المترجم).
(٢) الأديب الفرنسي (المترجم).

لقد تغيّر مضمون المعارضة خلال القرنين الأخيرين، حتى بات من العسير أحياناً التمييز بين المعسكرين. فهل يجدر القول أن حزب اليسار يحمي الفقراء والمستضعفين، بينما يتعاطف حزب اليمين مع الأثرياء والمستغِلّين؟ لن نجد في أوروبا القرن العشرين توزيعاً للأدوار بهذه البساطة. وذلك لظهور الطبقة الوسطى التي تشكّل الغالبية الساحقة في بلدان عديدة أولاً، ولاستخدام حزب اليمين أفراداً من طبقة الفقراء ثانياً : فهتلر مثلاً يتمتع بدعم الشعب له؛ والجبهة الوطنية - وهذا مثل حي ومعاصر- كانت في وقت من الأوقات تتقدّم الصفوف في انتخابات العمال. والسبب الثالث هو أن الشيوعيين في السلطة هم المسيطرون و"ينتمون إلى حزب اليسار" في آن واحد.

لا يمكننا الإدعاء أيضاً أن حزب اليسار يدافع عن حرية الأفراد، بينما يرعى حزب اليمين النظام، والدولة القوية، والسلطة المركزية. في الواقع، هذه العبارات التي تتوافق مع صراع الأحرار ضد المتطرفين، صراع "كونستان" ضد "بونالد **Bonald** [(١)] "غداة الثورة الفرنسية، لم تعد تناسبنا. فلم تعد الدولة هي المسيطرة على العنف الشرعي فقط، إنما أصبحت أيضاً هي المصدر للحماية ولأعمال الإحسان بالنسبة للأفراد (إنها الدولة-المُعينة)؛ فلم تعد تعارض حرية الأفراد، بل باتت هي التي تضمنها. أما بالنسبة للأفراد، فإن ممارستهم للحرية قد تصبح مصدر تهديد لمن هم حولهم. فإذا أرادت الدولة الحد من هذه الحرية فإنها بذلك تتخذ إجراءً خاصاً بالـ "اليسار". وأخيراً لم يعد هناك وجود للمعارضة بين حزب اليسار وحزب اليمين، بين الاستقلال الذاتي والتبعية، بين التصرف تحت شعار إرادة الشعب الحرة والتقاليد؛ فكل الأحزاب الديمقراطية باتت تحتمي اليوم بسيادة الشعب وبالانتخابات العامة، وأصبح اختلافها ينحصر فقط في جرعات المحافظة والإصلاح، التي غالباً ما تتعلّق بوجود هذا الحزب في الحكم، أو أنه بين صفوف المعارضة، ولم تعد تتجلّى في اعتبارات برمجية بحتة.

هذا لا يعني مطلقاً أن المعارضة بين حزب اليسار وحزب اليمين قد اندثرت، بل أصبحت نسبية ومتغيرة. والمعارضة بين الإصلاحيين والمحافظين، بين المساواة

---

(١) المؤلّف والسياسي المدافع عن مبادئ الحكم الملكي (المترجم).

والمراتب الاجتماعية، بين الحرية والنفوذ لا تزال مهيمنة في المجتمعات الديمقراطية، ولا يوجد أي مبرر لزوالها، حيث أنها تبقى ملائمة للمسلمات الأساسية في هذه المجتمعات؛ ومن جهة أخرى، تتناسب كل عبارة مع أحد الوجوه الإنسانية ويمكن ترقيتها إلى مستوى المثل الأعلى. وكما رأينا، يمكن لمبادئ الاستقلال الذاتي للأفراد والاستقلال الذاتي للشعب، والحرية والمساواة، أن تتعارض فيما بينها، كما سبق ورأينا.

سيلقى هذان التياران السياسيان: اليسار واليمين، المسيطران بالتتابع أو بالتناوب على هذه المعارضة وغيرها مماثلة لها، أياماً مضيئة؛ حيث أن هذا الاختلاف في الآراء هو الذي سيتابع بناء هيكلية الحياة السياسية الداخلية لكل بلد. أما سبب وجوده فلا ينحصر في الفجوة المنهجية التي تفصل بين التيارين (فهي غير موجودة في الأصل)، بل صار من الضروري أن يتناوب هذان التياران من أجل الحفاظ على استمرار مبدأ التعددية، وذلك لفسح المجال أمام كل مواطن ليمارس حرية الاختيار. فالإجماع لا يكفي في الحقيقة، لتأمين حياة سياسية ديمقراطية. يجب أيضاً تهيئة الفرصة أمام كل مواطن للاختيار بين نظامين ديمقراطيين مختلفين ومتوازنين، وأيضاً بين مجموعتين من الأفراد مختلفتي المنهج. ولدى إتمام هذا الأمر، يلتزم الفرد - دون أن يدرك ذلك - بقاعدة قديمة جداً تخص المجتمعات البشرية وتكتنف روح التنافس، مع السماح بحصر الطموحات والأحقاد الشخصية ضمن بنية مشتركة.

ومع ذلك، فمهما بلغت أهمية المعارضة بين حزبي اليمين واليسار في الحياة السياسية الداخلية للديمقراطية، تبدو لنا هذه المعارضة مرتبطة بأمرٍ آخر، قد لعب دوراً بنّاءً في تاريخ القارة الأوروبية في القرن العشرين وفي الضمائر الفردية. إن المعارضة بين هذين النظامين: الشمولية والديمقراطية، هي التي تفرض علينا التمييز بين كتلة التطرف من جهة، سواء كانت من اليمين أو من اليسار، وبين كتلة الأنظمة المعتدلة من جهة أخرى، التي بدورها، يمكن أن يديرها حزب اليسار أو حزب اليمين "البرلماني"، كما شاعت التسمية في مثل هذه الحالات. إلاّ أن هذا لا يمنع من وقوع هجوم بين الكتلتين المتطرفتين، شفهياً كان أو جسدياً (يمكن أن يحصل بينهما نزاع حول المقعد!)؛ كما لا يمنع الأطراف المعتدلة من المحافظة على المنافسة.

ليس لنا مصلحة إذاً بوضع النازية "اليمينية" في مواجهة مع الشيوعية "اليسارية": فكلاهما، وهذا هو الأهم، ينتميان إلى الكتلة المتطرفة، فهما من الأنظمة الشمولية ولا ينتميان إلى الأنظمة الديمقراطية. في قصته (ما وراء اليسار واليمين) التي كتبها عام ١٩٣١، رأى "سيميون فرانك" أن الوقت قد حان لدمج "الحمر" و"السود" ضمن فئة واحدة، نظراً لوجود التشابه بينهما[6]. فالاختلاف الجذري المعلن عنه في برامجهم، لا يوافقه اختلاف ملموس في التطبيق. يمكن لهذا الاختلاف أن يتراءى لنا إذا تتبعنا منظور النَسَب وليس الهيكلية: فالشيوعية تريد أن تكون نهاية للأفكار التي نادى بها الدين المسيحي، في حين أن النازية تزدري هذا التقليد وتقدم نفسها وريثاً للفكر الوثني؛ الأولى تقدم نفسها من أجل نصرة العبيد القدامى، بينما الثانية من أجل نصرة الأسياد، وهكذا دواليك.

وماذا إذاً عن السياسة المثيرة للنازية، الفريدة من نوعها، والتي تتجلّى بإفناء "الأجناس البشرية الدنيا"، وخصوصاً اليهود منهم؟ هذه خصوصية النازية، يفترض تحديد طبيعتها. إذ لا ينبثق المعنى الفريد لإبادة الشعب اليهودي من حصيلة عدد موتاه، حيث أن ستالين تعمّد قتل أعدادٍ مماثلة في العامين ١٩٣٢-, ١٩٣٣ كما أن سبب إبادة الشعب اليهودي لا ينتج عن كونهم ولدوا يهوداً، كما يشاع، أو لأنهم اقترفوا أعمالاً خاصة تستوجب القتل، ذنبهم هو مجيئهم إلى هذه الدنيا؛ ويتكرر الحال نفسه، أحياناً، بالنسبة لفئات الطبقة البورجوازية، أو الكولاك، أو حتى الفلاحين العاديين، عندما نشاهد النساء والرجال والأطفال والشيوخ، يبادون جنباً إلى جنب، بسبب انتمائهم إلى مجموعة، لا بسبب ذنبٍ اقترفوه؛ فقد صدر القرار أن هذه المجموعة بأكملها لا تستحق العيش، كان "غروسمان" على حق في ذلك. إن عملية إبادة اليهود لم ترِد ضمن قرار شامل ومخطط، منبثق عن السلطات العليا في الدولة في أحد النظامين (الشيوعي أو النازي)، حيث أن القرار والتخطيط موجودان في كلا الطرفين. كما أن هذه الإبادة لا تنبع (كما هو شائع) عن كون الألمان شعب من وسط أوروبا على درجة عالية من الثقافة، نحن نعلم على الأقل منذ عهد "روسو"، أن الثقافة لا تولّد الفضيلة بشكلٍ آلي، فسوء الأخلاق لدى الجماعات المثقفة لم يعد يدهشنا. أين هو موقع الإبادة على وجه التحديد إذاً؟

تكمن خصوصية هذه الجريمة في المشروع النازي "القاتل". وقد رأينا أن فكرة التخلّص من جزء من البشرية من أجل ضمان الانسجام النهائي، موجودة في كلا الطرفين؛ بل إنها متأصلة أكثر لدى الفكر الشيوعي، الذي يسلّم باندثار الطبقات المعادية بطريقة صريحة وبسيطة، بينما تسعى النازية لإفناء بعض السلالات البشرية التي منها اليهود، والاكتفاء بتحويل باقي السلالات إلى عبيد، ومنهم "السلاف". ولكن على أرض الواقع، فإن كفة الميزان ترجح لصالح الجانب الآخر، أي الشيوعية، صحيح أن الأرقام التي وصل إليها عدد الضحايا لدى الطرفين متقارب، إلاّ أنه لا يمكن مقارنة ذلك بالإبادة المنظمة لليهود وباقي الجماعات الذين حكم عليهم من قبل النظام النازي، بأنهم غير جديرين بالعيش. وبعبارة أوضح، فإن (كوليما Kolyma)[١] و (جزر السولوفكي Iles Solovki) هي المعادل الروسي لـ (بوشنوالد Buchenwald)[٢] و(داشو Dachau)[٣]، ولكن مع ذلك، لم يعرف الاتحاد السوفييتي أبداً شيئاً يشبه (تريبلينكا- Treblinka).

لم يصبح حكم الإعدام هدفاً بحد ذاته إلاّ في معسكرات الإفناء النازية. إذ كان بمقدور أصحاب الفكر النازي فيما لو أرادوا تبرير فعلتهم هذه، خلق أسباب سامية: كتوفير السعادة للشعب الألماني، وللعرق الآري، أو حتى للبشرية المطهّرة. إلاّ أن كون هذا الهدف بعيد المنال، لم يمنع من أن يكون هناك نهاية حتمية وحيدة للفعل الملموس الذي ألزم الجلادون به أنفسهم، ألا وهي الفتك بضحاياهم. ومن هنا كان إنشاء المعسكرات المهيأة خصيصاً للقتل: (تريبلينكا، سوبيبور Sobibor، بيلزيك Belzec، شيلمنو Chelmno)، أو أحياء كاملة للقتل موجودة داخل معسكرات الاعتقال مثل (أوشويتز Auschwitz وماجدانيك Majdanek).

أما أكداس الضحايا في الاتحاد السوفييتي، فإنها تأتي من منطق مختلف تماماً، فالهدف هنا ليس سلب الحياة، إنما يأتي كتنفيذ عقوبة، ووسيلة إرهاب، أو خسارة وحادث سخيف. لقد انطفأ سكان (الغولاغ Goulag) بعد ثلاثة أشهر من

(١) وهو رافد المحيط القطبي الشمالي المتجمد (المترجم).
(٢) قرية ألمانية استخدمت كمعسكر اعتقال (المترجم).
(٣) قرية ألمانية استخدمت كمنفى ألماني (المترجم).

الإعياء والوهن والبرد والمرض؛ ولم يهتم أحد لأمرهم، إنهم ليسوا سوى" كميات" مهملة وسيتم استبدالهم بآخرين. لا بأس من موت الفلاحين تضوراً وجوعاً، بما أن هذا هو الشرط لإخضاع الأراضي لنظام الشيوع، وتبعية أوكرانيا إلى روسيا، وإلحاق القرية بالمدينة. ليس الموت هو المهم هنا، إنما هي الحياة التي فقدت كل قيمة لها. يجب التخلّص من صفوف الأعداء بشكل نهائي، ويُفَوَّض الأمر إلى كل من التاريخ والطبيعة لإنجازه (فترسل الجماعات إلى سيبريا حيث توجد التندرة المتجمدة، وهي مساحات شاسعة من الطين الكدرِ والأسود، كما أنها مناطق قطبية و مرتفعة). ويتكرر الأمر نفسه عند النازيين في معسكرات الاعتقال، حيث تفقد الحياة قيمتها أو يُحكم على السجناء بالأعمال الشاقة؛ ولكن مع فارق بسيط هو أن الموت يصبح هدفاً بحد ذاته في معسكرات الإفناء. ويحتفظ كل من هذين النظامين بخصوصيته في هذا الشق من الموضوع، رغم وجود التشابه في البرنامج.

ونود هنا أن نذكّر بأعمال إبادة من الجانب السوفييتي شبيهة تماماً بتلك التي نُفِّذت على يد النازيين، مع أنها لا تشكّل النسبة الأكبر لمعدّل الوفيات، فهناك أحكام بالإعدام المباشر هدفها الجماهير وليس الأفراد. ما يجدر بنا ذكره هنا ليست حالات الوفيات الناتجة عن المجاعة، والبرد، ووحشية المعاملة في المعسكرات، إنما الإبادة الجماعية لفئات اجتماعية أو عرقية رمياً بالرصاص. ففي شهر تموز من عام ١٩٣٧ صدر قرار بضرورة تصفية طبقة (الكولاك)، مع أنهم فقدوا هذه الصفة بعد أن سُلبت أراضيهم منهم، حيث تمّ سلبهم أراضيهم. ولم يُوقَّع حكم الإعدام من قبل فرد واحد، بل جاء وفقاً لنظام الحصص بمعدلّ واحد إلى أربعة؛ فكانت الحصيلة مائتي ألف إنسان قضوا بهذه الطريقة.

وتأتي واقعة الضباط البولونيين الذين تمّ اعتقالهم منذ الاستيلاء على جزء من بلدهم، من قِبل الاتحاد السوفييتي عام ١٩٣٩، لتكرر المنطق نفسه. فهذه المجموعة تملك هوية اجتماعية - إذ أنهم ضباطٌ، فهم حتماً أعداءٌ للطبقة الكادحة أي البروليتاريا- وفي الوقت نفسه لديهم هوية وطنية، و ينحدرون من أصلٍ بولوني، فهم إذاً أعداءٌ للروس. ويصدر قرار من المكتب السياسي في الخامس من شهر آذار عام

١٩٤٠ يحدد مصيرهم بضراوة: فقد حكم عليهم بالإعدام رمياً بالرصاص، وكان عددهم (٢١ ٩٠٠) واحداً وعشرين ألفاً وتسعمائة بولونياً، (منهم ٤٤٠٠)، أربعة آلاف وأربعمائة تم تنفيذ الحكم فيهم في غابة (كاتين **Katyn**)، فقد أطلقت رصاصة في مؤخرة رأس كل فرد فيهم دون أن يمثلوا أمام القضاء. لقد شعر "ستالين" بالصفة الاستثنائية لهذا القرار في القانون السوفييتي، ففرض على كافة أعضاء المكتب السياسي التوقيع على القرار، بهذه الطريقة لن يجرؤ أحد على الادعاء بأنه لم يكن على علم بالأمر، فالكل متآمر. هذا النوع المنظّم للإبادة، والذي رفضت السلطة السوفييتية الاعتراف به لفترة طويلة، يشبه تماماً عملية إبادة اليهود على يد النازية، ولكن على نطاق أضيق، فقد قام النازيون وحدهم بإبادة مليوني وخمسمائة ألف يهودي بولوني.

يمكن أيضاً رؤية خصوصية إبادة الجنس اليهودي من زاوية أخرى، فهي تتميّز عن غيرها من المجازر المنفَّذة على يد نظام الشمولية كون الضحايا من نوع مختلف. لقد لعب كل من الشعب والدين والتقاليد اليهودية دوراً مركزياً في تاريخ أوروبا، يشبه إلى حد ما الدور الذي لعبته اليونان القديمة، ولكنه دام لفترة أطول. إن هذه المعلومة لا تبرر مقتل الفلاح الأوكراني، ولكنها تشير إلى أن هذا المشروع الذي يسعى لاقتلاع الجذور، وإزالة هذه المقومات من الهوية الأوروبية، أو حتى من البشرية كاملة، له مغزى تاريخي أهم من باقي مشاريع الإفناء الأخرى التي تسعى "بكل بساطة" إلى التخلّص من شعب بأكمله.

إن المذابح، والإبادات العنصرية التي نُفِّذت في عقر دار الشيوعية، كان لها دورها المركزي في هذا التاريخ، ولكن بطريقة مغايرة تماماً، ليس من حيث طبيعة الضحايا، التي تختلف تبعاً للعصور والمناطق (وأكبر شاهد على ذلك هو التيار المعادي لليهودية)، بل من ناحية الجلادين أنفسهم. مما لا شك فيه، أن التيار المعادي لليهودية منوطٌ بشكل وثيق بتاريخ المسيحية، إذاً بتاريخ أوروبا، مع أن المسيحية لم تتعامل أبداً مع المشروع النازي القاضي بالإبادة الشاملة؛ لكن المشروع الشيوعي هو نهاية مروِّعة، وتغيير إلى الأسوأ في مجرى النزعات الجوهرية لهذا التاريخ، كالمذهب

الخيالي الذي ينادي بالمساواة، والمذهب الألفي المسيحي، والمذهب الإرادي، والمذهب العقلاني، و من ثَمَّ، الحث على العلوم.

إلى جانب المنهج الرسمي، والممارسة التطبيقية للأفراد، هناك تصورات صادرة عن الأفراد أنفسهم. وتأتي المفارقات هنا على درجة من الأهمية: فالشيوعي لا يرى نفسه في النظام النازي، والعكس صحيح. يجب أخذ هذا الأمر بعين الاعتبار، وعدم الاكتفاء بترديد أن هذين المذهبين متشابهان "موضوعياً". أما على صعيد الحياة الواقعية الشخصية، فالمعارضة أكثر صلابة، لهذا السبب يبدو من المتعذّر جداً إقناع المقاتل القديم، أي المؤمن القديم أنه كان يشبه عدوه اللدود. فطالما بقينا في ذاكرة الفرد الحميمة فإن هذه التصورات الذاتية تحافظ على شرعيتها التامة، التي تضمحل كلما ابتعدنا عن الذاكرة للدخول في صلب التاريخ.

وأراني هنا مضطراً لإسدال الستار على موضوع الاختلافات بين النظامين الشموليين حيث أن المقارنة بينهما خصبة؛ ومع ذلك فهي لا تسمح لنا بفتح كل الأبواب الموصدة. وهذا يسري أيضاً على مفهوم الشمولية نفسه، أود أن أُوضّح هنا على وجه الخصوص، أنه يبدو لي أن الفائدة المجنيّة من مفهوم "المشمول" هي أكبر عنها في مفهوم "الشامل". بمعنى أن إضفاء صفة الشمولية على الأنظمة الشيوعية والفاشية لا تعطينا إلاّ السمات العامة منها، وهذه بدورها مع كونها غير سطحية، إلاّ أنها لا تكفي. فبعد أن لعبت دورها الفاضح، وبعد أن رسمت الخطوط العريضة للاتجاهات، وقفت فائدتها عند هذا الحد، ووجدنا أنفسنا مضطرين لإدخال أشكالٍ جديدة. فهيكلية الدولة في كلا النظامين، تتجه نحو التوحيد، أما البيروقراطية، فدورها مختلف، إذ إن الخنوع الكامل للقائد لا يتخذ المنحى نفسه، سواء تبدّل القائد من "هتلر وستالين"، إلى "لينين وستالين وبريجنيف". فالإرهاب موجود، والمعتقلات تتزايد هنا وهناك. حتى لو تشابهت روايات الضحايا، إلاّ أن الدلالات لا تلتقي بصورة دقيقة. بإمكاننا إضافة المزيد على هذه اللائحة إلى ما لا نهاية. ولكن نُبقي على تسمية هذه الأنظمة بالشمولية لتمييزها عن باقي الأنظمة المختلفة عنها، كالأنظمة الديمقراطية، والمجتمع الفردي، والفلسفة الإنسانية، بل ونضيف أيضاً نظام حزب المحافظين، والحكم الاستبدادي العسكري.

التقييمات

كيف لنا أن نقيّم فرعي الشمولية؟ يجدر بنا، كخطوة أولى التمييز بين الأنظمة نفسها وجلاديها. فبالنسبة للأنظمة، و أعلن هنا موافقتي على استنتاجٍ أفصح عنه كثيرون قبلي: النظامان على درجة واحدة من الكراهة، حيث تُحصى ضحاياهم المباشرة بالملايين، ويبقى أمر فاضح يجب ذكره في هذا المضمار، ألا وهو لائحة المكافآت. إنه لأمر وحشي أن يعاني سجين من الجوع، والبرد القارس، والطفيليات، وأشكال أخرى من العنف داخل معسكر الاعتقال. لا يهم إن كان المعسكر ألمانياً أو سوفييتياً، فالجلادون لا يعجزون عن اختراع وسائل تعذيب تتجدد في كل مرة. والإبادة المباشرة التي مارسها النازيون لا يوجد لها معادلٌ حقيقي في الجهة السوفييتية. ولكن أن تتسبب بموت الملايين من الآدميين خلال سنة واحدة بسبب تجويعهم المفتعل، لهو بدوره أمر يثير الهلع.

هذه الإدانة الجماعية يجب أن تُعدَّل وفقاً لأجواء معينة. فمن الواضح مثلاً، أن الحكم الاستبدادي النازي المطبّق في بولونيا قد تسبب في إبادة أعدادٍ بشرية تفوق تلك التي أبيدت على يد الحكم المطلق الشيوعي؛ أما في بلغاريا، فالتوزيع معكوس. وأذكّر هنا، لمجرد إعطاء فكرة، أنه وخلال سنوات الحرب كلها من عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٤٤، تلك الفترة التي شهدت أبشع أشكال القمع على يد مؤيدي الفاشية، كانت الحصيلة أن بلغت أحكام الإعدام المنفذة (٣٥٧) ثلاث مئة وسبع وخمسون حالة، كانت كلها عقوبات مبهمة؛ أما خلال سنة واحدة ١٩٤٤-١٩٤٥ وغداة عملية ضم بلغاريا إلى المسار السوفييتي الشيوعي، فقد ارتفع عدد الضحايا الذين قتلوا على يد السلطة الجديدة إلى ألفين وسبعمائة قتيل.

وإذا اعتمدنا المنظور التاريخي للموضوع، فإن النظام الشيوعي يحتل الساحة المركزية، لقد امتد حكمه لفترة أطول، كونه بدأ مبكراً وانطفأ متأخراً. لم يكتفِ بوسط أوروبا بل طال جميع القارات، وانضمت أعداد جديدة هائلة إلى ضحاياه.

يُفترض محاكمة الشيوعية من منظور العصر الراهن، لأن الخديعة التي مارستها كان لها نفوذها، بل وكانت مضللة، لذا يتحتم كشف النقاب عن جرائمها. ولكن هناك خلل جليّ يميّز الأحكام الرسمية التي أطلقت على هذين النظامين، فيما عدا بعض الأحداث الهامشية، حيث تمّ بالإجماع وصم أفعال النظام النازي بالعار، بينما لا يزال النظام الشيوعي يتمتع بسمعة طيبة ضمن مساحات أكبر ففي فرنسا مثلاً ظهر تيار رديف يدعى "تروتسكيست Trotskiste [1]". إن التيار المناهض للفاشية أمر حتمي، في حين يبقى النظام المناهض للشيوعية موضع شبهة. ففي فرنسا أو ألمانيا اليوم، يعتبر "تيار النفي" جريمة يعاقِب عليها القانون: عندما ننفي الجرائم التي ارتكبتها الشيوعية، أو حتى عندما نطري على المنهج الذي وِفْقَه تمت هذه الجرائم، هذا التصّرف مشروع وجائز.

ونظراً للظروف التي أعلنت انتهاء حكم الشيوعية، الذي تجسد "بالموت الطبيعي" للقادة الشيوعيين، إذ أنهم لم يتعرّضوا لهزيمة عسكرية، كما أنهم لم يمثلوا أمام القضاء، ولم يطلبوا العفو أو الصفح من أحد، كما لم يتم التعويض عن جرائمهم التي لا حصر لها، لذا يفضل تعديل كفة الميزان، على الأقل على مستوى الرمز والفكر، ليس بهدف التستر أو التخفيف من الفظائع المنسوبة إلى النازية، بل لتذكر تلك المنسوبة إلى الشيوعية، التي لا تزال ذكراها تنبض في عقولنا.

وإذا التفتنا الآن إلى ممثّلي النازية والشيوعية، تتراءى لنا ملاحظات جديدة لمعرفة إذا كانوا في السلطة أو بين صفوف المعارضة، ثم نحاول معرفة إذا كانوا من القادة أو من المقاتلين الأساسيين. ففي البلاد التي تولوا زمام الحكم فيها، لن تأتي المحاكمة متشابهة، حيث يجب التمييز بين أصحاب القرار ومنفّذيه، فهؤلاء هم في أغلب الأحيان من فئة الإصلاحيين أو من فئة أصحاب المهن، وهم لا يختلفون عن الجماهير الشعبية في النظام الديمقراطي، لقد وجدوا أنفسهم منقادين للحكم المحلي ضمن دائرة الألم الشمولي.

أما في البلاد التي بقي فيها الشيوعيون بين صفوف المعارضة (الموضوع هنا لا يخص النازيين) فلا مبرر للتحدث عن الجرائم، إننا نجد أنفسنا متعاطفين مع

(١) ومعناه اليساريون (المترجم).

الاندفاع الذي يعبّر عنه أولئك المقاتلين لنصرة الجماعات المقهورة، وللنضال من أجل توطيد العدالة الاجتماعية والحرية والسلام. و نضيف هنا أن هذا المثل الأعلى لا علاقة له بالشيوعية، ولكنه يبقى موزعاً ما بين حركات اجتماعية أو دينية مختلفة. فما يميّز الشيوعية ليس المثل الأعلى للانسجام النهائي، ولكنها الوسيلة لبلوغه عن طريق تسخير خياراتنا الشخصية لخيارات الحزب، و إقصاء فئة من الشعب (من صفوف الأعداء)، والسيطرة على الحكم الثوري والاستبدادي من قبل البروليتاريا (أي الطبقة الكادحة)، وإلغاء الملكية الخاصة والحريات الفردية. إلى جانب ذلك، الإطراء غير المشروط على الاتحاد السوفييتي، أو غيره من الدول الشيوعية التي أصبحت التجسيد الوحيد للعدالة والسلام والرفاهية. إن التصرّف على أساس أن هذه الخيارات لا تكمل البرنامج الشيوعي، ينم إما عن عملية تستّر، أو عن جهل متعمّد.

يبقى أن نذكر هنا أنه كون الخدعة على قدر هام لدى الشيوعيين، فإن المواقف التي نشاهد فيها عناصر شيوعية سابقة تتحوّل إلى مناهضين متوحشين تتكرر باستمرار. الأمر أقل شيوعاً لدى النازية، حيث أن البرنامج مطابق للممارسات نسبياً. لهذا السبب سيحظى الشيوعيون القدامى وحدهم دون النازيين القدامى، وبحق، برصيد عاطفي لا يستهان به.

obeikandi.com

تبدو مارغريت بوبر - نيومان

كشاهد في دعوى **Kravtchenko** عام ١٩٤٩

القرن من خلال
مارغريت بوبر - نيومان
Margarete Buber-Neumann

في عصر اليوم الثامن من شهر شباط، تتجه مجموعة من السجناء مؤلفة من ثمانية وعشرين رجلاً وامرأتين، يقودهم ضباطٌ من البوليس السياسي السري نحو الجسر الذي يعلو نهر (بوغ Bug) في منطقة (بريست- ليتوفسك Litovs–Brest). لم يعد هذا النهر يجري وسط أراضي بولونيا في تلك الحقبة، بل أصبح يفصل الأراضي البولونية المحتلة من قبل الإمبراطوريتين الشموليتين: فألمانيا استولت على الأراضي الواقعة غرب نهر (بوغ)، بينما سيطر الاتحاد السوفييتي على الأراضي الواقعة شرقه. تم إنزال السيدتين ورجلين في حالة صحية متدنيّة أمام هذا الجسر بعد أن أقلّتهم الشاحنة من محطة (بريست- ليتوفسك). أما باقي السجناء فقد تابعوا الطريق من المحطة حتى الجسر سيراً على الأقدام. كانت موسكو هي نقطة انطلاقهم الأولى، حيث وضعهم عناصر البوليس السياسي السوفييتي قبل ثلاثة أيام داخل القطار تحت الحراسة المشددة. كان قد تمّ الإفراج عن هؤلاء السجناء قبل شهر من هذا التاريخ في معسكرات الاعتقال والسجون السوفييتية لجمعهم في موسكو. كان بعضهم من الشيوعيين القدامى، والبعض الآخر من الاشتراكيين اليساريين، وهناك الألمان، والنمساويون، وكان العديد منهم من اليهود الذين هاجروا إلى الاتحاد السوفييتي في الثلاثينيات هرباً من اضطهاد وتعذيب النازيين لهم، وبعد فترة وجيزة تم توقيفهم وترحيلهم.

وعند مدخل الجسر، يتسمّر هؤلاء السجناء في مكانهم وهم يرتجفون من البرد القارس. لقد رأوا عسكرياً ألمانياً يتقدّم نحوهم. وعندما اقترب منهم، تعرّف إليه السجناء، لقد كان يرتدي الزي الرسمي للبوليس السري. تبادل الضابطان الروسي والألماني التحية بتهذيب، وتحروا سوية عن صحة أسماء السجناء الواردة ضمن

اللائحة. لم يعد هناك مجال لأي شك، لقد تم تسليم هؤلاء المهاجرين القدماء الذين هم من أصل ألماني و نمساوي من بوليس ستالين إلى بوليس هتلر. في هذه الأثناء، بدأ ثلاثة من السجناء يضطربون. أحدهم كان يهودياً من أصل هنغاري، والثاني كان شيوعياً وأستاذاً للغة الألمانية، أما الثالث فهو شاب يعمل في (دريسد Dresde) التي شاركت في عملية مسلحة ضد النازيين في ألمانيا، وقد صدر بشأنه حكم غيابي. كان لدى الثلاثة قناعة تامة أن عملية تسليمهم إلى البوليس السري الألماني تعادل الحكم عليهم بالإعدام، فأخذوا يقاومون بعنف. لذا قادهم رجال البوليس السياسي السوفييتي نحو الجسر حتى يتسنى للألمان القيام بتبديل الحرس. وعاد كل شيء إلى طبيعته خلال نصف ساعة. لقد وجد سجناء ستالين القدامى أنفسهم أسرى لدى هتلر. إحدى هاتين السيدتين وتدعى "مارغريت بوبر نيومان " هي التي نقلت لنا هذا المشهد الذي بقي حياً في ذاكرتها[1].

كانت المعاهدة الألمانية السوفييتية في الفترة الممتدة ما بين عامي ١٩٣٩-١٩٤١ وكأنها غزلية رعوية، حيث بلغت الصداقة بين الحاكمَين المستبدَين أوجها. وكمبادرة حسن نيّة، وافقت الحكومة السوفييتية على "إعادة" المهاجرين السياسيين إلى ألمانيا النازية، وهم الآن يتعفنون في ظلمات معتقلاتها وسجونها. بلغ عددهم الألف سجين، ثلثهم كان من أصل يهودي، أبعدتهم الدولة السوفييتية بالطريقة الآنفة. لم يتم بعد تحديد مصير كل منهم، ولكن خطوطه العريضة باتت معروفة: سيتم إعدام البعض منهم رمياً بالرصاص، وآخرون سيقضون داخل معسكرات الاعتقال، واعتنقت البقية الباقية المنهج النازي لشعورها بالمرارة نتيجة خذلان الاتحاد السوفييتي لها. في هذه الفترة بالذات، لم يكن التقارب النازي الشيوعي ليخفى على أحد.

كان مصير "مارغريت بوبر نيومان" غريباً وجديراً بأن نتتبعه بأدق تفاصيله. ولدت في عام ١٩٠١ في (بوتسدام Potsdam)، وهي مدينة ذات نظام ملكي عسكري. وكان اسمها آنذاك (غريت تورينغ Grete Thuring)، ترعرعت وسط عائلة بورجوازية متواضعة، تنحدر من أصل قروي. لقد كان للصراع الدفين الذي نشأ بين والديها أثرٌ في خيارات المرحلة الأولى من حياتها. فالأب يعشق النظام العسكري الألماني، وكان

من أنصار الملكية والوطنية. بينما كانت للأم معتقدات تحررية، وتميل للتعاطف مع الاشتراكيين. انتسبت كل من "غريت" وشقيقتيها إلى منظمة الشباب اللاسياسية، وتدعى (منظمة واندرفوجل **Wandervogel**)، كانت هذه المنظمة معارضة لتقاليد الحياة البورجوازية، وكانت تحكمها روح الرومانسية، واتسم شعارها بالـ "الصدق الداخلي، والنقاء الخارجي". واندلعت الحرب العالمية الأولى، ونتج عنها كم هائل من الألم والمعاناة، فبدأ هؤلاء الشبان الأعضاء في المنظمة بالبحث عن مسؤوليات اجتماعية. بعد الثانوية، تعلمت "غريت" في برلين مهنة معلمة روضة أطفال، وهو أول عمل لها في هذه المدينة أيضاً. أخذت تطالع بشغف مؤلفات "أوغست بيبيل **August Bebel**–"وهو أحد قادة الاشتراكية الألمانية، توفي عام ١٩١٣"، و"ليونارد فرانك **Le-onhard Frank**"و"روزا لوكسامبورغ **Rosa Luxemburg** وهي اشتراكية ألمانية، شاركت في ثورة ١٩١٩ وماتت مقتولة"؛ وقد اتسمت كل هذه المؤلفات بروح الاشتراكية. وفي عام ١٩٢١، أصبحت "غريت" عضواً في منظمة الشباب الشيوعي. في عام ١٩٢٦ انضمت إلى الحزب؛ وبدءاً من عام ١٩٢٨ عملت لصالح إحدى مؤسساته (الانبركور **Inprekor–L**) التي تُصدِر مجلة معلومات تنشرها الكومينترن (١).

لماذا وكيف نتبنّى الشيوعية في ألمانيا في ربيعنا العشرين؟ كثيراً ما راود "غريت" هذا السؤال، ويأتيها الجواب مفصلاً. في مرحلة الشباب الأولى تعتري الإنسان المشاعر الطيبة وتختلط في داخله: كالحاجة إلى الحرية، أي التخلّي عن الأحكام الاجتماعية السابقة والتي تعود للأعراف؛ وإلى التقاليد البحتة، (الالتزام الاجتماعي، والحب بلا قيود، والحياة البوهيمية)؛ وتوصّلت إلى القناعة أن كل البشر سواسية مهما اختلف أصلهم، ومستواهم وجنسهم؛ وإلى حب البشر والعدالة؛ وإلى الشعور بمعاناة الآخرين. فعندما يفتح هذا الشاب عينيه على العالم، يلاحظ هذه الهوة السحيقة بين المثاليات والواقع. "لقد تغيّر إحساسي بالتعاطف، واجتاحني شعور عميق بالذنب تجاه المجتمع[2]". فشعرتْ هذه الشابة برغبة عارمة في داخلها

---

(١) وهي حركة شيوعية دولية انحلت عام ١٩٤٣ ليحلّ محلها مكتب الاستعلامات الشيوعي عام ١٩٤٧ (المترجم).

تدفعها لتحسين واقع هذا العالم، وخاصة الشروط المعيشية لأكثر الناس عوزاً؛ وهذا هو في حقيقته منهج الحزب الشيوعي.

وعندما يجد هذا الشاب المتحمّس نفسه وسط أناس آخرين يشاطرونه نفس الإحساس، فإنه يستفيد من مزايا عديدة. أول ميزة هي الأسرة التي أصبح واحداً منها، بعد أن عانى من العزلة التي فرضها هذا المجتمع الذي ينادي بالفردية، على أعضائه. أما الآن فقد أصبح له آلاف الأقارب، و"الأخوة" بما أنهم يتقاسمون القيم نفسها. "باتت كلمة نحن تكتب بالأحرف الكبيرة"[3]. إن الإحساس بالانتماء إلى المجموعة يسمح بتجاوز لعنة الوحدة. وهناك ميزة أخرى يتمتّع بها الشاب، ألا وهي اليقين، فهو يملك جواباً على كل الاستفسارات، بدلاً من أن يعوم تحت رحمة حيرته وارتباكه، وبدلاً من أن يمل الانتظار بعد أن يقع فريسة لشكوكه. "فجأة، بدا لي كل شيء سهل الإدراك والفهم"[4]. لا يقف هذا الفكر المنظّم، بطموحاته العلمية، عند حد تفسير كل ما هو موجود في العالم؛ بل يرشد إلى الطريق الأمثل لبلوغ المجتمع المثالي. يبرهن لنا العقل أن التقدّم يبقى أفضل من ردة الفعل، والاتحاد السوفييتي هو بلد التقدّم. فالعلم يضمن الوعد بتحقيق السعادة؛ مما يجعل سحره لا يقاوم.

يستطيع هذا المعتنق للنهج الشيوعي الجديد أن يتخطّى المرحلة التالية، فبعد أن تعلّق بالحركة الشيوعية من خلال الصورة المغرية التي تعكسها له، والمزايا النفسية التي حظي بها؛ عليه أن يسعى نحو الخطوة التالية التي تتجسّد بالعدول عن الإفصاح عن حكمه الشخصي ليخنع لنظام الحزب. يتعلّم عندئذٍ التمييز بين التعلّق العاطفي الصرف بقضية المضطهدين، وهو حب مجرّد للعدالة، وبين فعالية المقاتل المنظّم. "فسرعان ما أصبح أنصار المثالية، ومصلحو العالم، وأصدقاء الجنس البشري عرضة للسخرية، ثم تفاقم هذا الشعور وتحول إلى الاحتقار، وأخيراً تم اضطهادهم من قبل الحزب. ذلك أن متطلبات الحزب كانت مختلفة تماماً: الإخلاص الأعمى، والتنازل الثابت عن إبداء الرأي الشخصي- أي الإخلاص التام، كما كانت التسمية- والانضباط الحديدي" [5]. بات يَعرف الآن كيف يميّز بين الغايات والوسائل، أو على الأقل بين غايات بعيدة المدى وغايات مباشر، لقد تقبّل أمر الأفعال

المعاكسة للرحمة المبدئية، حيث أنها قد تكون ضرورية، بما أنها تخدم الغاية النهائية التي حددها الحزب. لقد تمت التضحية بالاستقلال الذاتي على مذبح استقلالية جيل المستقبل. انطلاقاً من هذه اللحظة وعن غير قصد، بدأت تتوطّد أركان التشابه بين هذين الحزبين المتنافرين النازي والشيوعي، اللذَين كانا يتصارعان في الشوارع من خلال هذا التحوّل في الأحكام والإرادة الشخصية، ومن خلال الالتزام بالإخلاص نحو الحزب وقائده. لقد تأثّر الحزب النازي بالكرم العالمي، بينما تأثّر الحزب الشيوعي بالدفاع عن مصلحته. في تلك الأثناء، لاح في الأفق تقاربٌ في الخطط السياسية لكلا الحزبين.

وهكذا، عندما نتمعّن بأسباب هذا الالتزام الشيوعي، نقف مشدوهين أمام هذا التشابه من حيث التجربة الدينية، والتي تقدم المزايا نفسها، الارتباط بمثل عليا سامية، والشعور بالانتماء إلى أسرة واحدة، والراحة الناتجة عن اليقين العقائدي – ويحل الإخلاص للحزب مكان الخضوع الأعمى للكنيسة. بات معروفاً أن العقيدة الشيوعية تبحث عن الإلهام العلمي. "ففي هذا الإشراق المنبثق عن هذا المعتقد الأرضي للشيوعية خلال السنوات العشرين، كان للإيمان بالعلم دورٌ هام" [6]. فالفرضيات الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية التي نادى بها كل من "ماركس" و"إنجلز" باتت مقالات إيمانية لا تحتمل النقاش. و فيما بعد، وبينما هي مقيمة في الاتحاد السوفيتي، تكتشف هذه السيدة أن الأمر مشابه بالنسبة لباقي العلوم. و تشتكي أمامها عالمةٌ نفسانية صديقة فتقول: "إنهم يُكرِهوننا على التسليم بعقيدة "بافلوف **Pavlov**" (١) برمتها، وكأن الأمر لا يتعلّق بالعلم وإنما بمقال عن الإيمان السياسي"[7]. ومن هنا ندرك سبب تعذيب واضطهاد النظام الشيوعي لممثلي الديانة المسيحية بعنف وضراوة، في حين أنه في البداية لم يكن المذهب الشيوعي يتعارض مع المسيحية، السبب أن كل ديانة أخرى تُعتبر منافس ولا يوجد مكان إلاّ لرب واحد.

فمنذ اللحظة الأولى التي يعتنق فيها المقاتل المبادئ الشيوعية، تذوب حياته الخاصة في بوتقة الحياة العامة. وتدفع "غريت" ثمن هذه المعرفة غالياً. ففي عام

---

(١) ذلك العالِم بوظائف الأعضاء الروسي (المترجم).

١٩٢٠ تلتقي في الوسط اليهودي اليساري بابن الفيلسوف الألماني ويدعى "رافائيل مارتن بوبر **Rafael Martin Buber**"وتعيش معه، وعند بلوغها السن القانونية ترتبط به رسمياً. ويرزق الزوجان بطفلتين بعد فترة من زواجهما. ولكنهما ينفصلان في عام ١٩٢٥ . كان من أقوى أسباب النفور بينهما ابتعاد "رافائيل بوبر" عن الحزب في وقت من الأوقات. وترعى الأم طفلتيها بمفردها حتى عام ١٩٢٨، ثم تسلمهما إلى جدتهما لأبيهما إذعاناً لقرار المحكمة التي أوصت برعاية الطفلتين لهذه الأخيرة. ولم يُسمح للأم برؤية طفلتيها بين عامي ١٩٢٨ و١٩٣٤ إلاّ مرتين في العام. وينقطع أي اتصال بين الأم والابنتين ما بين ١٩٣٤ و١٩٤٥، ليعود عام ١٩٤٧. وتكتب الأم في سيرتها الذاتية [8]"يتحتم على الشيوعي التخلّي عن حياته الخاصة عند انتمائه للحزب".

ثم تلتقي "غريت" بـ" هينز نيومان **Heinz Neumann**"عام ١٩٢٩ وتعيش معه (لم ترتبط به رسمياً ولكنها أضافت اسمه لاسمها بعد عدة سنوات). كان "نيومان" آنذاك أحد القادة الرئيسيين في الحزب الشيوعي الألماني. وهو ينحدر من عائلة يهودية متحررة وميسورة الحال، يرفض الانتماء إلى أية هوية عرقية، ويحلم أنه مواطن في هذا العالم. وعند بلوغه الثامنة عشر من عمره في عام ١٩٢٠ ينتسب إلى الحزب مسخراً ذكاءه اللامع في خدمته ليصبح أحد أنشط الدعاة، بل أحد قادته الرئيسيين، ويأتي مباشرة بعد "تالمان **Thaelmann**" وأسوة بكثير من المفكرين، يجد نفسه منجذباً نحو الفكر الراديكالي(١)، ويحتقر التسويات أو التعديلات. ونظراً لسرعة تعلمه وإتقانه للغة الروسية ينال رضى "الرفاق" السوفييت وخصوصاً "ستالين"، فيصبح من المقربين لديه ويمنحه ثقته. غير أن "نيومان" يتصرّف تبعاً لقناعاته، وليس تبعاً للتوجيهات الصادرة عن السلطة العليا. ويقوده فكره الراديكالي للإشادة بالصراع العلني مع النازيين والاشتراكيين الديمقراطيين على حدٍ سواء. ولكن في أوائل الثلاثينات، تشهد السياسة السوفييتية- الألمانية تغيراً ملموساً ويصبح التشدد غير مقبول. يتم استدعاء "نيومان" إلى موسكو حيث يذهب برفقة "غريت" عام ١٩٣٢ . ويُرى موقفه المتشدد المناهض للنازية على أنه "انحراف"، وبات

(١) وهو مذهب الأحرار المتطرفين الذين يطالبون بالإصلاحات الجذرية (المترجِم).

نقّاده في الصفوف الرسمية يقربونه من (التروتسكيست) [1] الذين كانوا على قناعة تامة بخيانة ستالين للثورة. ومع ذلك، لا زال هذا الأخير ينظر بعين الرضى إلى "نيومان"، فيدعو الزوجين لقضاء الإجازة برفقته على ضفاف البحر الأسود. يرافق ذلك مشاهد مضحكة تصورها "غريت بوبر- نيومان" في مذكراتها.

إلاّ أنه لم يعد بمقدور "نيومان" العودة إلى ألمانيا. فأرسلته الحركة الشيوعية الدولية الكومينترن إلى إسبانيا عام ١٩٣٣ لتُلزمه في نهاية العام بالذهاب إلى سويسرا بعد قطع كل صلة به. فيصل كل من "هينز" و"غريت" إلى زيوريخ، وليس بحوزتهما أية أوراق رسمية أو أي نقود. يعيش الزوجان في المدينة عدة أشهر إلى أن يتم إلقاء القبض على "هينز" في يوم من الأيام عن طريق الصدفة. فيتم الكشف عن هويته الحقيقية، وتطالب ألمانيا الهتلرية بتسليمها الفأر لإحالته إلى القضاء. فترفض السلطات السويسرية ولكنها تبقيه في السجن. عندئذٍ يقترح الاتحاد السوفييتي استقباله في البلاد؛ فيبحر الزوجان من (ميناء الهافر **Havre**) ويصلان إلى الاتحاد السوفييتي عام ١٩٣٥. عند وصولهما إلى موسكو، ينزل الزوجان في فندق (لوكس **Lux**) المخصص للشيوعيين الأجانب، ولكن مع اختلاف في الأجواء. إذ لم يعد أحد يدعوهم؛ فقد مات قسم من الأصدقاء القدامى، والقسم الآخر يخشى من التردد عليهم لأن مصيرهما بات مجهولاً. في ذلك الوقت في موسكو، كانت المحاكمات والدعاوى في أوجها. عمل الزوجان في ترجمة إصدارات الكومينترن إلى اللغات الأجنبية. وذات يوم، يستدعي "ديميتروف" الرئيس الجديد للكومينتيرن، "نيومان" ويطلب إليه تأليف كتاب في تمجيد السياسة الجديدة للجبهات الشعبية - المتجسِّدة به شخصياً، (أي ديميتروف) - مع مقدمة يورد فيها سيرته الذاتية. فيرفض "نيومان" مبرراً ذلك بأنه لا يريد كتابة أمورٍ منافية لأفكاره. في ذلك اليوم، وقّع "نيومان" على وثيقة إعدامه. فالحزب لا يريد أفراداً ذوي بأس، يتصرفون وفقاً لقناعتهم الذاتية، إنما يحتاج إلى أناس خانعين، مستعدين لإنكار الذات في أية لحظة.

---

(١) نسبة إلى تروتسكي وهو من الثوار الروس الذي نظّم الجيش الأحمر، كان معاوناً للينين عام ١٩١٧، نفاه ستالين عام ١٩٢٩، ومات مقتولاً في المكسيك عام ١٩٤٠ (المترجم).

كانت نهاية "نيومان" مأساوية. فقد بدأ يدرك شيئاً فشيئاً أن الاتحاد السوفييتي يمثّل حكماً استبدادياً دموياً لا يؤمن ولا يعمل بالمثل العليا التي اعتقد نفسه في يوم من الأيام أنه يناضل من أجلها. لقد كان يشعر بالسخط والغيظ يتملكانه عندما كان يستمع خلال المحاكمات، إلى البلشفيين القدامى وهم يعترفون بطريقة مثيرة للشفقة "بأخطائهم" أو "بخياناتهم" مورطِّين بذلك أفضل أصدقائهم. فقد قال لـ "غريت": "أؤكد لك أنني سأجد القوة لأصرخ بأعلى صوتي -ليسقط ستالين- لو أنهم أحالوني إلى القضاء العلني! لن يثنيني أحد عن ذلك[9]". وتمضي الأشهر الأخيرة من حياتهما في هذا الفندق وهما ينصتان في كل ليلة إلى أصوات النعال في أروقة الفندق، يرتقبان اعتقالهما في أية لحظة. وشهدت هذه الفترة أيضاً حباً مضطرماً بينهما، وكأن تبلّورَ حنانهما كان مرهوناً بضعف تعلقهما بالسياسة. وكانت آخر رسالة حررها لزوجته تفيض بكلمات الغزل التي كان يداعبها بها، وكان عددها يتجاوز الأربعين كلمة! وفي ليلة السابع والعشرين من شهر نيسان من عام ١٩٣٧، توقفت الخطى في الرواق أمام باب غرفتهما. واعتُقل "نيومان" ؛ كانت آخر كلماته لـ"غريت" "اذرفي من الدمع ما شئت، فالأمر يستحق ذلكّ. [10]!" وبقي مصيره مجهولاً طيلة الخمسين عاماً التي لحقت هذه الليلة: لقد نُفذ فيه حكم الإعدام رمياً بالرصاص في يوم السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني من العام نفسه. كان في نية السلطة أن تتم محاكمته علناً، ولكن ذلك لم يحصل أبداً. ولم يتمكّن "نيومان" من أن يصرخ بالحقيقة في وجه العالم.

حتى هذا التاريخ، كان مصير "مارغريت" في حياتها العامة، منوطاً بمصير شخص آخر؛ وقد عبّرت عن ذلك قائلة "لم أكن سوى عنصر تكميلي". فبدأت منذ تلك اللحظة تمارس حياتها بإرادتها، شاعرة بالمسؤولية. لم ترغمها حياتها التي عاشتها مع مسؤول شيوعي على إغماض عينيها عن الأمور التي كانت تدور من حولها، ولكنها لم تكن لتحاول التعمّق في انطباعاتها. أثناء زيارتها لروسيا عام ١٩٣٢، تجاهلت أمر المجاعة التي هزت جزءاً من البلد؛ إلاّ أنها ذات يوم رأت حشداً غفيراً من الناس مصطفاً في رتل لا نهاية له أمام البريد في موسكو، قيل لها آنذاك أنهم يرسلون الخبز إلى ذويهم. لقد اعترتها الدهشة من سلبية المواطنين تجاه هذه

الأحداث السياسية، إلى جانب القمع الاجتماعي السائد، وتدعيم أواصل التفاوت في "موطن الاشتراكية". وتكتشف من جهة أخرى، أن الدولانية (١) ذلك الشعار المعلّق على الواجهة ليس سوى نظرية تهدف إلى التعتيم على مواقف ذوي النفوذ من الروس؛ فالتسمية الأصح هي "الوطنية". وكانت البداية في عام ١٩٣٧ عندما قررت رؤية العالم على حقيقته.

وخلال عام كامل امتد ما بين اعتقال "نيومان" وبين حادثة اعتقالها هي شخصياً، في التاسع عشر من شهر حزيران عام ١٩٣٨، تقول "مارغريت"، أن هذا العام كان الأسوأ في تاريخ حياتها، بل أسوأ من الأعوام التي قضتها في معسكر الاعتقال. حيث تقول في مذكراتها "كان العام بين اعتقال زوجي واعتقالي أنا شخصياً، هو الأكثر فظاعة ووحشية في تاريخ حياتي على الإطلاق"[11]. أمضت "مارغريت بوبر -نيومان" الأشهر الأولى في الرتل الطويل أمام سجون موسكو بحثاً عن زوجها، لكي تعطيه بعضاً من المال. أعلموها في النهاية أنه مسجون في (لوبيانكا **Loubianka**) ولكن في شهر كانون الأول أعيد إليها هذا المال. حيث قيل لها أن ""نيومان" لم يعد هنا" (لقد تمّ تنفيذ حكم الإعدام فيه). تمت مصادرة جواز السفر منها، وتجريدها من إذن التصريح بالعمل، لم تعد تملك أي مصدر للرزق؛ وعاشت على بيع الكتب والملابس القديمة في سوق البراغيث(٢). باتت ترتعش في كل مرة تسمع فيها وقع خطى من حولها. التمست الرحيل إلى فرنسا حيث تقطن أختها "بابيت غروس"، زوجة "ويلي مونزنبيرج **Willi Münzenberg**)"وهو شخصية هامة قديمة من الكومينترن؛ فتأتيها الإجابة بالرفض. ويأتيها أمر اعتقالها كخلاص لها من مشاكلها. وها هو اسمها يندرج في قائمة الشيوعيين الألمان الذين تحدث عنهم "فاسيلي غروسمان" والذين اضطهدوا في عهد هتلر ثم ستالين.

تُمضي "بوبر -نيومان" ستة أشهر في اعتقال احترازي قبل أن يتم الحكم عليها بقضاء خمس سنوات داخل معسكر الاعتقال، بتهمة رئيسية، تُستخدم في كافة

(١) المذهب الذي يسمو إلى إقامة اتحاد بين الشعوب والأمم متجاوزاً الحدود (المترجم).
(٢) الذي تباع فيه الأشياء المستعملة (المترجم).

الحالات "عنصر خطير على المجتمع". ومع بداية عام ١٩٣٩، تصل إلى معسكر (كاراغاندا **Karaganda**) في سُهُب كازاخستان، على حدود الصين. إنه معسكر شاسع، تفوق مساحته أراضي الدانمارك بمرتين، ويبلغ عدد نزلائه (١٧٠ ،٠٠٠) مئة وسبعون ألف معتقل! لم تكن الرقابة فيه شديدة، ولكن الهروب منه كان أمراً مستحيلاً، فعلى بعد مئات الكيلومترات، تحيط به الصحراء. كان عدد المعتقلين بتهم سياسية قليل، ولكنهم يخضعون للإرهاب الذي تفرضه القوانين المشتركة. أما الظروف الصحية فهي تعيسة، حيث يعاني السجناء من البق والقمل. والأسوأ من كل ذلك هي تلك العلاقة التي قررتها إدارة المعسكر بين كمية العمل المطلوب إنجازه من قِبل السجناء في مقابل كمية الغذاء المقدمة لهم. يعمل المعتقلون في الحقول أو المناجم، ويفترض منهم تقديم معدّل إنتاج معيّن. فإذا قصّروا، يتم التخفيض من حصتهم في الغذاء. والغذاء قليل في الأصل، فهو مكوّن من اليسر اليسير من الحساء والخبز، ما عدا بعض الفئات التي تتمتع بامتيازات خاصة. فكلما قلّت كمية الغذاء الذي يُقدم إليهم كلما قلّت قدرتهم على إنجاز العمل المطلوب؛ وكلما قلّت نسبة العمل المقدمة من قبلهم، جاء ذلك على حساب الغذاء المقدم لهم. ونتيجة تضاؤل حصص الطعام المقدم إليهم، والجوع الذي يزيد من إعيائهم، فإنهم يقضون خلال أشهر قليلة. لم تستمر "بوبر – نيومان" على قيد الحياة إلاّ بفضل شهادة قدمها طبيب سجين مثلها، يذكر فيها أنها "غير قادرة على القيام بالأعمال الشاقة".

يتم استدعاؤها بعد عام ١٩٤٠ إلى مكتب الرائد الذي يعلمها أن عليها الرحيل. وبعد سفر طويل، تجد نفسها في سجن موسكو ولكن بشروط أفضل من هناك: فالأغطية هنا نظيفة، والماء دافئ، والطعام حسب الطلب. وتسير الأمور بالنسبة لها ولصديقاتها الجدد في هذا السجن، اللاتي كنّ مثلها معتقلات من أصلٍ ألماني أو نمساوي، "وكأنهن يتهيّأن" ليتم إرسالهن إلى مكان آخر. ولكن إلى أين؟ فكل هؤلاء الشيوعيات القديمات، أو الرفيقات في الحزب لم يكّن ليتصوّرن أنه سيتم تسليمهن إلى "هتلر". حتى بعد أن تمّ وضع هذه المجموعة المؤلّفة من رجال وسيدات داخل القطار باتجاه الغرب، كانوا يعتقدون أنه سيتم ترحيلهم إلى بلد محايد، و تحريرهم فيه. حتى جاء ذلك اليوم، الثامن من شهر شباط من عام ١٩٤٠ ورأوا فيه ذلك

الضابط الألماني من البوليس السري يمشي في اتجاههم على جسر (بوغ) في (بريست-ليتوفسك).

تبدأ هنا أحداث الفترة الثانية من ملحمة اعتقال "بوبر - نيومان". فبعد ستة أشهر أمضتها في السجن، تم إرسالها إلى (رافينسبروك **Ravensbrück**)، وهو معتقل خاص بالنساء، دون محاكمة ودون تحديد فترة التوقيف. حيث بقيت فيه حتى شهر نيسان من عام ,١٩٤٥ كانت ظروف الحياة هنا مقبولة في بدايتها: فالنظافة متوفرة، والطعام كاف، والعمل لم يكن مضنياً. ثم تسوء هذه الظروف مع بداية عام ١٩٤٢ وتتدنى تدريجياً لتصل إلى مستوى معسكر الاعتقال في (كاراغاندا). في ١٩٤٤، تبدأ أعمال الانتقاء ثم الإبادة لـ"الضعيفات" منهن، والمريضات والمسنّات. ومنذ بداية الاعتقال، تتعرّض جميع المعتقلات لعمليات التعذيب النفسية والجسدية، وتدرك ("بوبر - نيومان" أن أجسادهن قد تآكلت وفسُدت بشكل بليغ؛ وينتهي بهن الأمر إلى الاستسلام وتبنّي القيم التي يؤمن بها مراقبو البوليس السري بشكلٍ لا إرادي رغماً عنهن)، "فالدين المسيحي يدّعي أن المعاناة تطهّر البشر وتشرّفهم". بينما أثبتت الحياة في معسكر الاعتقال عكس ذلك. أعتقد أنه لا يوجد شيء أخطر من الألم والإفراط في التعذيب. وهذا ينطبق على الأفراد كما ينطبق على الشعوب برمتها" [12]. تشرف "بوبر - نيومان" على الموت أكثر من مرة، نتيجة تعرضها للأمراض ولأنواع التعذيب، لقد أمضت خمسة عشر أسبوعاً داخل زنزانة مظلمة.

بالإضافة إلى اضطهاد البوليس السري الألماني، خضعت "بوبر - نيومان" إلى نوع آخر من الاضطهاد صادر عن المعتقَلات الشيوعيات، سواء كنّ من أصل ألماني أو تشيكي، وعددهن كبير في المعسكر، وكنّ هنّ المسيطرات في المعتقل. وحال وصولها إلى المعتقل الخاص بالنساء (رافينسبروك)، قمن باستجوابها، وما أن استمعن إلى روايتها حول المعسكرات السوفييتية، حتى صنفنها بالـ "تروتسكيست" وأقصينها عنهنّ. فبالنسبة لتلك النسوة، لم يكن للفرد قيمة بحد ذاته، إنما تأتي قيمته من حيث تمثيله لفئة معيّنة، وفيما يتعلّق بـ "بوبر- نيومان" فهي بلا شك، تنتمي إلى فئة "أعداء الاتحاد السوفييتي".

ولحسن الطالع، تلتقي "بوبر- نيومان" داخل هذا المعتقل بسجينات أخريات. تتعرّف في العام الأول، إلى الصحفية التشيكية "ميلينا جيسينسكا **Milena Jesens-ka**"، وهي صديقة قديمة لـ "فرانز كافكا **Franz Kafka**"، نُفيت إلى هذا المعسكر بتهمة قيامها بنشاط مناهض للفاشية. وتولدت بين السيدتين صداقة حميمة تنتهي بموت "ميلينا" عام ١٩٤٤. ثمّ تتعرّف إلى سيدة أخرى، وتدعى "إنكا **Inka**"وهي طالبة في كلية الطب، من أصل تشيكي؛ ومع أنها شيوعية، إلاّ أنها كانت تتمرّد على توجيهات الحزب، وأصبحتا صديقتين؛ وذات يوم، تنقذ هذه الصديقة حياتها عندما تسرق العقاقير لمعالجتها. كما تنشأ صداقة مع معتقلات سياسيات غير منتميات للحزب الشيوعي، فرنسيات الأصل، تدعى إحداهن "جيرمين تييون **Germaine Tillion**" والأخرى "آنيس بوستيل-فيني **Anise Postel-Vinay**" أما الثالثة فتدعى "جنفييف دو غول **Geneviève De Gaulle**". وبما أنهنّ يجهلن مصيرهنّ، فقد باحت كل واحدة منهنّ للأخريات بما يجب أن يخلَّد في ذاكرة الشعوب يوماً ما. وتتلاحق الأسابيع، وتروي "بوبر-نيومان" لصديقاتها الفرنسيات تجربتها في معسكرات الاعتقال السوفييتية، وتقوم "بوستيل-فيني" بالترجمة لمن تجد صعوبة في فهم اللغة الألمانية؛ ومن ناحيتها تقوم "جيرمين تييون" بالترويح عن صديقاتها برواية مغامرات مسلية عاشتها في الجزائر، حيث كانت تعمل كخبيرة بعلم الأجناس.

في نيسان عام ١٩٤٥ يقترب الجيش الأحمر من هذا المعسكر. وتُخلي إدارته سبيل عدد كبير من السجينات من بينهن "بوبر- نيومان" التي تتجه سيراً على الأقدام نحو الغرب، هرباً من السيطرة السوفييتية. وتصل إلى مزرعة جدها بعد شهرين كاملين من التيه والتشرّد في أراضي ألمانيا الخربة. وتبدأ مرحلة جديدة من حياتها هناك.

لقد استعادت "بوبر-نيومان" حريتها بعد سبعة أعوام طوال أمضتها متنقلة بين ظلمات السجن وجحيم المعتقل، ولكن الأمور لم تعد كسابق عهدها. مات أبوها أثناء الحرب، بعد أن حرمها وأختها (بابيت **Babette**) من الإرث بسبب انتمائهن للشيوعية! تستقر "غريت" في مدينة فرانكفورت الألمانية، وتحاول العودة إلى مهنتها الأصلية كمعلمة مدرسة، يواجَه طلبها بالرفض من قبلِ الإدارة الأمريكية العسكرية: فلقد

تقدّمت بها السن! ذات يوم يُطلب منها سرد تجربتها للشباب الاشتراكي الديمقراطي في المنطقة، مع تحذيرها من التكلم عن معسكرات الاعتقال الروسية، لقد سُمح لها بالتحدث عن معسكرات النازية فقط! وتجدد صلتها بابنتيها، اللتين أصبحتا شابتين الآن، وتقطنان في القدس، وتكتشف أنهنّ من المعجبات بالاتحاد السوفييتي الذي هزم ألمانيا النازية. ولا يخفى على أحد أن سيرة حياة "بوبر- نيومان" تذخر بالأحداث المزعجة.

في بداية عام ١٩٤٦، تتلقى دعوة للإقامة في منزل مليونير سويدي يدعى "أولوف آشبيرج **Olof Aschberg**" كان قد تعرّف آنفاً إلى "ويلي مونزنبيرج **Willi Münzenberg**"وشبكته في فترة ما قبل الحرب، وحافظ على بعض الصداقات الشيوعية. أما الآن فهو مستعد لتقديم يد العون لتلك الألمانية العضو في الكومينترن، ولكنه لا يريد أن يسمع شيئاً عن المعتقلات السوفييتية. ترتاح "بوبر - نيومان" في جو ستوكهولم الهادئ، حيث وفّر لها مضيفها، عملاً مكتبياً ومأوى. وفي تلك الأثناء، تكتشف موهبتها الجديدة. فقد عقدت اتفاقاً مع صديقتها التشيكية "ميلينا" داخل معتقل (رافينسبروك)، ينص على مشروع لتدوين كتاب بعنوان (عصر معسكرات الاعتقال) يتحدّث عن نظامي الشمولية. وبما أن "ميلينا" قد غابت عن عالم الأحياء، تقرّر "بوبر- نيومان" القيام بهذه المهمة بمفردها، معتبرة ذلك واجباً نحو تلك الصديقة التي قضت داخل المعتقل، و نحو كل الصديقات اللاتي تعرّفت إليهن في هذا المعتقل أو ذاك، لقد أوصينها جميعهن أن تأتي على ذكرهن وتحكي قصتهن للجميع! ويساور "بوبر- نيومان" الشعور بالعار الذي ينتاب الأحياء، هذا العار الذي يعاني منه كل من دخل إلى المعتقل، طالما أنها لم تعكف على الكتابة؛ وكانت في كل ليلة تخلد فيها إلى النوم، يراودها الكابوس نفسه، أيام المعتقل. فتقرر البدء بالكتابة، ويتغلغل في أعماقها إحساس بالخلاص رويداً رويداً. تنحصر موهبتها بكونها الشاهد الأمثل، إذا لم نقل الوحيد، على بربرية هذين الحكمين المطلقين. فالحيوية العجيبة التي تتمتّع بها هذه السيدة البسيطة والمتواضعة، أتتها كمكافأة على السنوات التي قضتها داخل المعسكرات، وهيأت لها الفرصة لتصبح مدوِّنة مذكرات ومؤرّخة بآنٍ واحد: ألفت عدداً لا بأس به من الكتب لمحاربة الشر المهيمن، موجّهة كلامها إلى قرّاء متنوعين، فكان دورها شاهد عيان.

حمل أول مؤلف لها عنوان (سجينة ستالين وهتلر)، تروي على صفحاته سبع سنوات من عمرها ما بين ١٩٣٨ و ١٩٤٥. تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة السويدية عام ١٩٤٨، وبعد فترة وجيزة إلى اللغة الألمانية. وتأتيها النتيجة المباشرة بسبب إصدارها لهذا الكتاب حيث تفقد بآن واحد، عملها ومأواها في السويد: لقد سخط عليها المليونير الذي كان يقدم لها الدعم بسبب نشرها لهذه الدعاية المناهضة للسوفييت. فتعود أدراجها إلى ألمانيا. وفي العام نفسه، يُترجم كتابها إلى اللغة الإنكليزية بصورة مقتضبة، وفي العام الذي تلاه إلى اللغة الفرنسية- وهنا تتم ترجمة القسم الأول منه فقط تحت عنوان (النفي إلى سيبيريا)؛ أما القسم المتبقي فلم يتم نشره إلاّ عام ١٩٨٨، أي بعد أربعين عاماً، وقد حمل عنوان (النفي إلى رافينسبروك)!

يتضمّن الإسهام المبتكر للكتاب ذلك التقارب بين تجارب كل من الحكم المطلق النازي والحكم المطلق الشيوعي، حيث خصّت الكاتبة كلاً منهما بعدد لا بأس به من القصص، لقيت صداها لدى القرّاء، لأن المناهضين للنازية والشيوعية كثيرون؛ والأمر المهم والذي يشوش القارئ، بل ويثير الحماس لديه في بعض الأحيان، هو هذا التكامل بينهما. فالتشابه يبدو مضاعَفاً الآن، هناك التزامن من جهة، وتجسده سيرة "بوبر- نيومان" نفسها، والمصافحة بين ضباط البوليس السياسي السوفييتي والبوليس السري الألماني فوق جسر (بوغ)؛ ومن جهة أخرى التطابق الذي يشير إليه تحليل الحياة اليومية داخل المعسكرين. لهذا السبب، نجد أنه من المؤسف أن تكون الطبعة المترجمة إلى اللغة الفرنسية، والتي اكتملت اليوم، قد جزّأت الكتاب إلى قسمين منفصلين عن بعضهما البعض، بدت الحياة في كل منهما مستقلة عن الأخرى، بينما كان مشروع "بوبر -نيومان" و "ميلينا" داخل المعتقل، أن تتم دراسة الحكم المطلق لدى كل من النظامين بآن واحد.

سجلت "بوبر- نيومان" في الكتابات التي لها صلة بالتاريخ وبمذكراتها، نقاط التقاء أو تشابه بين النظامين، حتى قبل أن تبدأ تجربتها في المعتقل. فمنذ عام ١٩٢٣، أوصى "رادك **Radek**"مدير الكومينترن، الشيوعيين الألمان بالتعاون مع الوطنيين الاشتراكيين. وكانت "ليلة السكاكين المشهودة" والتي هي عبارة عن تصفية

حسابات بين النازيين، على غرار حريق (ريشستاغ **Reichstag**)، قد ولّدت لدى ستالين فكرة استخدام حادث اغتيال "كيروف **Kirov**" كذريعة "لتطهير" الحزب، وإنشاء حكم استبدادي أكثر قسوة عن ذي قبل، (وتشاطر "بوبر- نيومان" "فاسيلي غروسمان" الرأي حول هذه النقطة، علماً أنها لم تكن على اطلاع بها). لقد عبّر كل من المسؤولين السوفييت، سواء كان "ميكويان **Mikoïan**" أو حتى ستالين نفسه أمام "هينز نيومان" عن إعجابهما بالتحسينات التي قام بها هتلر! لدى مقارنة قبضة الجهاز البوليسي على الشعب بكل فئاته، تدرك "بوبر- نيومان" أن الألمان متأخرون بأشواط عن السوفييت من هذه الناحية، وأنه يجب عليهم سد هذه الثغرة! حيث أن الإرهاب يمارس على قسم واحد من المواطنين الألمان ألا وهم اليهود، أو المعارضين الناشطين؛ في حين أن الشعب السوفييتي بأكمله يرزح تحت الإرهاب في تفاصيل حياته اليومية. ويأتي التقارب واضحاً بشكل جلي، عندما تقوم "بوبر- نيومان" بتحليل تجربتها الخاصة حين كانت معتقلة داخل المعسكرات.

ويمكن أن تتم المقارنة على عدة محاور. فالمعسكرات تشغل في كلا النظامين مكاناً ووظيفة على المدى القريب، أي ممارسة الإرهاب السياسي، إلى جانب تأمين نظام السخرة لصالح الدولة. "لقد انطلق هذان النظامان من معطيات مختلفة، سياسية، وما وراء السياسية فيما يتعلّق بالاعتقالات، ولكن يجب أن نذكر دوماً أن المبدأ كان متطابقاً، والهدف واحداً. لهذا السبب، "فهما يستحقان أن توجَّه لهما إدانة واحدة، أي أن يكون الحكم عليهما مطلقاً. وتقول "بوبر- نيومان" "إن بغضي لمعسكرات الاعتقال الألمانية يوازي بغضي لمعسكرات ذلك المستبد ستالين" [13]. ومن هنا أصبح بالإمكان اكتشاف مواضع التشابه والاختلاف بينهما من خلال مقارنتهما.

وإذا عدنا لواقع النظامين، نجد أن المعتقلين السياسيين (و"العرقيين" لدى الطرف النازي) يتم تعريضهم للعنف ولاستبداد "الحق المشترك" – فيما عدا بعض المعتقلات الألمانية، مثل معتقل (بوشنوالد **Buchenwald**)، حيث يدير السجناء الألمان أنفسهم الحياة فيه يوماً بيوم. وتكثر الضربات والعقوبات في كلا الجانبين. ففي ألمانيا، يتم قتل الأطفال الخدّج، أما في الاتحاد السوفييتي، فبدل القتل، يتم انتزاع

الطفل من أمه بعد فترة بسيطة من ولادته. فالنظام المدروس بدقة مفرطة من قبل الألمان، تقابله الفوضى التي تسود في المعسكرات الروسية، ولكننا لا نستطيع الوصول إلى أن نقرر ببساطة أي الوضعين أفضل. "في الواقع، إني أتساءل أي الوضعين أسوأ، هل هو ذلك الكوخ المصنوع من اللبن، الذي غزاه القمل قادماً من بورما أو تلك الكوابيس المتسلسلة" [14]؟ في المعتقلات الروسية، على خلاف الألمانية، لا نجد أعداءً حقيقيين للنظام، ويقول "دافيد روسيه **David Rousset**"الذي اعتقل بتهمة سياسية، وسيق إلى معسكر الاعتقال في (بوشنوالد)، في كتابه الذي ألفه تحت عنوان (حول الحرب) "كنا كلنا مذنبين. ذنبنا أننا كنا أقوياء". وتأخذ نسبة السياسيين بالانخفاض تدريجياً، حيث يتيهون وسط بقية المعتقلين الذين لم يكونوا في يوم من الأيام من المعارضين، إنهم ينتمون إما لليهود، أو للغجر، أو لفئة "غير الاجتماعيين".

في الاتحاد السوفييتي، لا يوجد أثر لغرف الغاز أو لمعسكرات الإبادة. هذا الفارق له دلالته، مع أنه لا يكفي لجعل المعسكرات الروسية أكثر راحة. بالفعل، تتنوع الأساليب هنا، حيث نجد مثلاً داخل هذه الأخيرة، المجاعة التي يتمّ فرضها عن عمد كعقوبة على العمل غير المنجز؛ والأمراض التي تُترك بدون علاج، والتي تنتشر بواسطة الحشرات الطفيلية كالبق والقمل والبراغيث؛ والبرد القارس للتوندرا السيبيرية؛ كل هذه المقدمات تتسبب بالموت بنفس الصورة الوحشية للغاز، ولكن بطريقة أبطأ. وتأتي ملاحظة "بوبر- نيومان" أثناء إدلائها بالشهادة في قضية "دافيد روسيه"[15]: "من الصعب أن نقرر أي الطرق أكثر وحشية وقسوة، أهي الإعدام خنقاً بالغاز خلال خمس دقائق، أو الإعدام ببطء عن طريق التجويع خلال ثلاثة أشهر". يكمن الفارق البيّن في المكانة التي تحتلها طريقة الإعدام بالنسبة لمشروع المجموعة في كل نظام. فالسوفييت الذين يغلب عندهم الطابع التاريخي والاجتماعي للنظرية الشاملة، يتركون "للطبيعة حرية الانتقاء بين الضحايا"، فأول من يتأثر بالجوع والبرد والمرض هم المعتقلون الأكثر ضعفاً. أما النازيون الذين يدّعون أنهم من أنصار مبادئ علم الحياة، فيمارسون بالمقابل عملية "الاختيار الاصطناعية"، كما حصل في معسكريّ الاعتقال (أوشويتز) و (رافنسبروك)، فالنازيون هم الأطباء والحراس في

آن واحـد، وإليـهم يعـود قـرار إعـدام هذا السـجين، أو تـأجيل ذاك. أمـا النظام السوفييتي فيضحّي بحياة آلاف البشر وكأن الحياة لا قيمة لها عنده، بينما يسيطر على النظام الألماني "هيجان القتل" [16].

وتركّز "بوبر-نيومان" على اختلاف آخر بين النظامين، يتجلى في التناقض بين فكريهما. حيث تتم معاملة المعتقلين في المعسكرات السوفييتية كعبيد، بينما يعاملون في ألمانيا على أنهم أدنى من البشر. يوعَز إنشاء معسكرات الاعتقال في الاتحاد السوفييتي لسببين: فهو وسيلة لفرض هيمنة الإرهاب السياسي من ناحية، ولتوفير اليد العاملة المجانية والخاضعة لأوامر العمل في المناجم، والمصانع، والحقول من ناحية أخرى. والسبب الثاني هو أمر جوهري، حيث يجدر بطبقة الغولاغ أن تلعب دوراً رئيسياً في الاقتصاد السوفييتي. وما يميّز العادة القديمة في استخدام العبيد هي كون الاتحاد السوفييتي يمثل مستودعاً لا ينضب من اليد العاملة، وبالتالي فإن إدارة المعسكرات ليست ملزمة بالاهتمام بالعبيد، من هنا لا داعي لتقديم الطعام الكافي، ولا لإعطائهم الملابس الصوفية الدافئة، ولا لتقديم العناية الطبية لهم لتقيهم من الأمراض أو العدوى؛ فإذا ما قضوا نحبهم فسيتم جلب آخرين غيرهم. ومن جانب آخر، يتم التمويه وإخفاء هذين السببين، السياسي والاقتصادي، عن الزوار الغربيين، بإلقاء خطاب، لا يؤمن به أي إنسان في الاتحاد السوفييتي، ويتم من خلاله اقناع هذا الزائر أن الهدف من إقامة مثل هذه المعسكرات هو إعادة تأهيل الأفراد المذنبين، وتحويلهم إلى رجال سوفييت منفتحين.

والمعسكرات الألمانية من جهتها تؤدّي الوظيفة نفسها، ألا وهي نشر الإرهاب لدى بقية أفراد الشعب، غير أن عامل الاستفادة من اليد العاملة كان غائباً عن ذهنها؛ ولم تعِ أهميته إلاّ خلال سنوات الحرب الأخيرة، مع فارق أنه يتم إذلال الأفراد وإفسادهم، كما لو كان هدف هذا النظام هو محو إنسانيتهم وتحويلهم إلى مجرد بهائم. " فالدور الرئيسي لا يكمن في إنجاز الأعمال المفروضة عليهم كالعبيد، بل في ممارسة التعذيب وأساليب الحرمان بحقهم" [17]، هكذا كتبت "بوبر- نيومان". وفي نفس السياق، لا يمكننا إلاّ أن نتأثر لدى رؤية البشر يُستخدمون كفئران تجارب

في المعسكرات النازية، لا الشيوعية، بهدف إخضاعهم لتجارب طبية. ففي (رافينسبروك) تحديداً، يمكننا مشاهدة مجموعة من الشابات البولونيات وقد غَطَّت أرجلهن ندبات مخيفة: لقد تمّ إدخال جرثومة مرض العصيات في أجسادهن لملاحظة مراحل تطورها. ولأن هذه الشرذمة من اليهود والغجر والسلاف المرضى أو الشيوخ أقل درجة من البشر- أي بشرٌ غير كاملين- فإنهم يستحقون الموت، بغض النظر عن المردود الاقتصادي الذي يمكن أن يقدموه.

لم تحرر "بوبر- نيومان" هذا الكتاب لتتخلّص من كوابيسها فحسب؛ بل إنها اعتبرته سلاحاً في وجه نظام الشمولية الغالب دوماً، ألا وهو الشيوعية السوفييتية؛ يجب أن تُتَّخذ تجربتها الفريدة وسيلة لفتح أعين الآخرين، أولئك الذين لم يعيشوها، لذا كان لزاماً عليها كمؤلفة أن تتوخّى البساطة والدقة في سردها لقصتها قدر الامكان. هكذا كان واجبها حينذاك. فالشيوعية ليست أسوأ من النازية ولكنها أيضاً، ليست أفضل منها. وحسب ما ورد في مقدمة نسخة كتابها المترجمة إلى اللغة الانكليزية "لقد تم القضاء على واحد من هذين النظامين المطلقين، ونجا ضحاياه من السجون والمعتقلات. أما النظام الآخر فلا يزال قائماً، ولا يزال الملايين من الناس يعانون داخل سجونه ومعتقلاته"[18]. فبدلاً من الاستمتاع بتذكّر معاناتها الماضية، تستجمع "بوبر- نيومان" قواها لمحاربة مواطن الشر القائمة، المتمثّلة بنظام الشمولية الشيوعي.

لم تكن "بوبر- نيومان" الوحيدة في مبادرتها هذه. فقد صدر كتاب آخر في الأسواق شغل عقول القرّاء الغربيين، وهو من تأليف "فيكتور كرافتشينكو **Viktor Kravtchenko**"تحت عنوان (لقد اخترت الحرية)، نُشر باللغة الإنكليزية عام ١٩٤٦، وترجم إلى اللغة الفرنسية في العام الذي تلاه. إن مؤلّف هذا الكتاب ويدعى فيكتور هو لاجئ سياسي سوفييتي، يروي فيه حياته في الاتحاد السوفييتي ومساوئ النظام الشيوعي. فتنظّم الصحيفة الأسبوعية الثقافية الشيوعية (رسائل فرنسية) حملة تنديد ضده، إنه يدّعي أن معسكرات الاعتقال تذخر في الاتحاد السوفييتي، فهو إذاً كاذب ومضلل! فيتقدم "كرافتشينكو" بدعوى تشهير ضد الصحيفة، ويطلب عشرين شاهداً عرفوا شكل الحياة في الاتحاد السوفييتي للمثول أمام القضاء، كان

من بينهم "مـارغـريت بوبر-نيـومـان"، التي صـدر كـتـابهـا بعـد وقت قـصـيـر من هذا التاريخ. وعُقدت الجلسات في الأشهر الأولى من عام ١٩٤٩.

كان للشهادة التي أدلت بها سجينة ستالين وهتلر أثرها الأكبر في القضية، إذ استطاعت هذه السيدة الهزيلة، ذات المصير العجيب إقناع هيئة المحكمة بصحة أقوالها. وأثناء المحاكمة، حاول محامو الدفاع عن صحيفة (رسائل فرنسية) يترأسهم الأستاذ "جو نوردمان **Me Joe Nordmann**" استخدام أسلوبهم المعهود: فبدلاً من الطعن بصحة أقوال الشاهد، لجؤوا إلى التحقير من شأنه على الصعيد الأخلاقي. ويربح كرافتشينكو دعواه، وتنتقل القضية إلى محكمة الاستئناف. في تلك الأثناء، قام محامو الدفاع عن الصحيفة بإعداد وثيقة، هي عبارة عن رسالة موقعة من قبل أربع سجينات تشيكيات شيوعيات سابقات، تمّ نفيهن إلى معتقل (رافينسبروك)، يتهمّن فيها "بوبر- نيومان" بالجاسوسية لصالح البوليس السري السوفييتي والجستابو الألماني أثناء مدة اعتقالها. باءت هذه الوشاية بالفشل، عندما أدلت معتقلات سابقات في هذا المعسكر، فرنسيات ونرويجيات بشهادتهن التي جاءت معاكسة للشهادة السابقة. وحُسمت القضية مرة أخرى لصالح "كرافتشينكو" في محكمة الاستئناف.

ولكن ظهر موضوع عرضي في هذا الحدث، أقلق مضجع "بوبر- نيومان". إذ تعرّفت على أحد التواقيع في رسالة الوشاية، وكان يعود لصديقتها "إنكا **Inka**" الطبيبة الشابة الشيوعية التي أنقذت حياتها ذات مرة في المعتقل. فكيف تشهد الآن ضدها؟ ترى هل تعرّضت "إنكا" للتعذيب؟ أم أنها لم تكشف حقيقة هذه الصديقة التي خدعتها؟ كلا الحلين مؤلمان بالنسبة لها ؛ وتحتار "بوبر- نيومان" بأمرها.

لن يكشف النقاب عن الأمر إلاّ في وقت متأخر جداً. فأثناء أحداث قضية "كرافتشينكو"، استنفر الجهاز الشيوعي لإبطال مفعول الجانب السلبي للقضية؛ حيث تم البحث في تشيكوسلوفاكيا عن معتقلات سابقات في معسكر (رافينسبروك). وتم العثور على سجينتين شيوعيتين تتسمان باللين، وفعلاً قامت كلاهما بتحرير رسالة إدانة ضد "بوبر-نيومان" دون أي رادع، بقي إضافة توقيع (إنكا) التي كانت في ذلك

الوقت في المستشفى في حالة وضع لطفلها الأول، فقامت الرفيقتان بزيارتها، وشرحتا لها حملة الوشاية التي قامت بها "بوبر-نيومان" بالاتفاق مع "كرافتشينكو" ضد الاتحاد السوفييتي، وأيقظتا في داخلها الشعور بالواجب تجاه الشيوعية؛ مما اضطر (إنكا) لتوقيع الرسالة تحت ضغطهن للتخلّص منهن. ولكنها لم تنسَ أبداً فعلتها هذه. وتمضي السنوات ويكبر طفلها؛ وتوجهت للمرة الأولى في عام ١٩٦٧ إلى الاتحاد السوفييتي وعادت أدراجها منهكة. ثم شاركت عام ١٩٦٨ "باحتفال ربيع براغ"، وفي العام الذي تلاه تم طردها من الحزب. حينئذٍ يتسنى لها قراءة كتاب "بوبر- نيومان" بعنوان (الثورة العالمية) الذي يؤثر فيها كثيراً. فينتابها أمل وحيد: الالتقاء مجدداً بصديقتها القديمة لتشرح لها سبب تصرفها الخائن.

يمضي وقت طويل قبل أن تتاح لها تلك الفرص، وتتمكن من زيارة باريس عام ١٩٨٦ للالتقاء بالصديقات السابقات اللواتي كنّ في معسكر الاعتقال (رافينسبروك). ولسوء الطالع، لم تكن "بوبر- نيومان" موجودة بينهنّ، لقد تقدمت بها السن! فتبادر "إنكا" بدعم من صديقتهن المشتركة "آنيس بوستيل- فيناي" إلى عملية لا تخلو من المخاطرة (فمثل تلك الأفعال لا تؤثر أبداً بالتي كانت تنتمي في السابق إلى المقاومة): تعبر الحدود الألمانية في سيارتها، وهي لا تحمل تأشيرة للدخول إلى أراضيها، لكي تلتقي "بوبر- نيومان" في فرانكفورت. وتبحث "إنكا" عن وسيلة للخلاص من تأنيب الضمير الذي تفرضه عليها ذاكرتها من جراء فعلتها المنكرة والتي تعتبرها الآن الأسوأ في حياتها. وللأسف الشديد، لم تحصل على الراحة التي كانت تنشدها: لقد استقبلتهن "بوبر- نيومان" والفرح بادٍ على وجهها، ولكنها تعاني الآن من فقدان الذاكرة، فهي لا تدري عن أية رسالة يتحدثن، لقد خذلتها ذاكرتها في هذه المرة، ولا يعود السبب في ذلك إلى الضغوطات السياسية، ولكن إلى جسدها المضنى؛ إذاً، ستبقى حقيقة الأمر مجهولة. وسيعتري "إنكا" الندم إلى الأبد: "فات الأوان لكشف النقاب عن فحوى هذه الرسالة" [19].

كان للدعوى التي أقامها "كرافتشينكو" صدى على الصعيد العالمي. وعمّ خبر شهادة "بوبر- نيومان" ولمع اسمها، وترجم كتابها إلى إحدى عشرة لغة. وأدلت

بشهادتها مرة أخرى في العام الذي تلاه في باريس في قضية القدْح التي أقامها "دافيد روسيه" ضد الصحيفة نفسها (رسائل فرنسية). وأثناء ذلك تتقدّم، هي نفسها، بدعوى مشابهة. فقد شنّ ضدها "إيميل كارلوباتش **Emil Carlebach**" وهو ألماني شيوعي و أسير سابق في معسكر (بوشنوالد) حملة وشاية، نشرها في إحدى الصحف الشيوعية الألمانية إثر ظهورها في قضية "كرافتشينكو" حيث كتب يقول: إن "بوبر- نيومان" يسارية سابقة (تروتسكيست)، وتعمل اليوم كعميلة لصالح الأمريكيين؛ وهي الآن تدّعي أنها تعرضت للاضطهاد ظلماً في الاتحاد السوفييتي، فها هي تُسَلَّم من قبل البوليس السياسي السوفييتي إلى البوليس السري الألماني مع أنها شيوعية الميول. لقد كانت - شأنها شأن كل اليساريين - عميلة للجستابو الألماني، ولحسن الحظ تم اعتقالها من قِبل البوليس السوفييتي اليقظ، الذي أعادها مجدداً إلى الجستابو، لأن هذا الأخير لم ينتهِ من خدماتها بعد... وتحسم القضية التي استمرت حتى عام ١٩٥٢ لصالح "بوبر- نيومان" ضد "كارلوباتش" الأمر الذي لم يمنع الصحافة الشيوعية من معاودة اتهامها[20].

وتتابع "بوبر- نيومان" نشاطها في السنوات التالية، حيث تُلقي عدة محاضرات علنية، تتحدّث فيها عن تجربتها الشخصية، وتجري تحليلاً عن العالَم الشيوعي. وتساهم بحماس كبير في المؤتمر الذي ينادي بحرية الثقافة، وهي منظمة عالمية مؤلّفة من أعضاء شيوعيين قدامى في شبكة (ويلي موزنبرغ) أمثال "آرتور كوستلر **Arthur Koestler**"و"مانيس سبيربر **Manes Sperber**"تأخذ هذه المنظمة على عاتقها مهمة التصدي للدعاية السوفييتية. كما أنها تترأس لجنة تحرير ضحايا نظام الشمولية المستبد، وترحب بتفاؤل بانفصال دول أوروبا الشرقية عن الاتحاد السوفييتي. وتتابع "بوبر- نيومان" كتابة مؤلفاتها. ففي عام ١٩٥٧ ينشر لها كتابٌ جديدٌ تحكي فيه سيرة حياتها، يغطي السنوات الأولى منها بين عامي ١٩٠١ و١٩٣٧ وقد أسمته (من بوستدام إلى موسكو، مراحل الضياع)[21]- وهو كتاب مشوّق (لم تتم ترجمته إلى اللغة الفرنسية)، ندرك من خلاله معنى الالتزام بالشيوعية في فترة ما بين الحربين.

في عـام ١٩٣٦، تفي بالوعـد الذي قطعتـه على نفسـهـا في مـعسكر الاعـتـقـال (رافينسبروك) أمام "ميلينا"، إنها لن تتساها ما دامت حيّة؛ فتخصص لها كتاباً[22]، جاء قاطعاً للشهادات التي تحدثّت عن معسكرات الاعتقال، من حيث الاستعانة بشخص ثالث كشاهد ولم يعتمد على شهادة المؤلف نفسه، وهذا ما يشكل محور القصة. لقد غيّر لقاؤها مع "ميلينا" من مجرى حياتها، إلى حدٍ دفع "بوبر- نيومان" إلى تدوين هذه الجملة العجيبة: "أتقدّم بالشكر للقدر الذي أرسلني إلى هذا المعتقل وأتاح لي فرصة الالتقاء بميلينا"[23]. لكن الثمن الذي دفَعتْه في المقابل كان باهظاً، فغداة موت "ميلينا"، شعرت "بوبر-نيومان" لبعض الوقت، أنه لم يعد لحياتها أية قيمة، حتى أنها فقدت معنى الحرية التي كانت تصبو إليها. وعندما قررت "بوبر-نيومان" بعد عشرين سنة، أن تروي قصة حياتها، فإنها لم تقف عند المعلومات الموجودة في ذاكرتها، بل تطرأت لحياة "ميلينا" السابقة من خلال الوثائق التي بحوزتها. وحصلت على النتيجة المرجوة، لقد عاد اسم "ميلينا" ليطفو على السطح، فهي لم تعد فقط تلك الإنسانة التي كان "كافكا" يرسل لها رسائل الغرام، بل أصبحت شخصاً مستقلاً، أصبحت مؤلّفة وصديقة كريمة.

في المؤلفات التي كتبتها "بوبر-نيومان" لاحقاً، نجد تغلّب التاريخ على الذكريات، فتصدر كتابيّ (الثورة العالمية)[24] و(المقاومة السرية الشيوعية)[25]، تعرض فيهما تطوّر الحركة الشيوعية العالمية في فترة ما بين الحربين. وفي مؤلفاتها الأخيرة، تعود إلى الإدلاء بالشهادات، فتصوّر مجموعة من الشخصيات، تجمعها في كتاب بعنوان (الشعلة المنطفئة)[26]، ثم تكتب المجلد الأخير عن مسيرة حياتها، وتسميه (أيتها الحرية، فزتُ بك مجدداً)[27] تروي فيه أحداث حياتها ما بين ١٩٤٦-١٩٥١ . وتعمل في الوقت نفسه لصالح الهيئة العامة للراديو والتلفزيون، وبعد عام ١٩٦٨، تكابد مجدداً من هجمات حزب اليسار الألماني الجديد، الذي يكره التحدث عن التشابه بين ستالين وهتلر.

تنطفئ "بوبر-نيومان" في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٨٩، في اليوم الذي تلا سقوط جدار برلين. إنها تبدو لنا الشاهد العيان النموذجي في نهاية هذا القرن،

الذي يكشف لنا الاضطراب الذي هيمن على الحياة السياسية في أوروبا- ويقول "ألبير بيغان **Albert Beguin**"عام ١٩٤٩ [28]، أنها "شاهد استثنائي"؛ ويضيف "آلان بروسات **Alain Brossat**"عام ١٩٩٩ [29] أنها "الشاهد المطلق". فهي القدوة أولاً من حيث مصيرها، ثم من حيث مواقفها التي تشهد لها بالاستقامة، وصدق النية، والحزم؛ لم تتكلّم أثناء الشهادات التي أدلت بها سوى عن الأحداث التي عايشتها أو عرفتها، ومن المصدر مباشرة، فهي تقدّم الأحداث على حساب الأحكام، ولا تحاول أن تبرز أو أن تفرض نفسها في محور الاهتمام. فهي تعرف كيف تحفظ دقائق الأمور في هذا العالم الذي تتصارع فيه الأنظمة المطلقة، ولم تكن رحلتها إلى الجحيم مثبطة للعزيمة بشكلٍ كامل. فعندما ننتهي من مطالعة مؤلفاتها، نخرج أكثر ثقة بمنابع الخير الكامنة لدى البشر، فها هي السجينة السابقة، إنها لم تفقد قدرتها على روح الفكاهة، أو احترامها لقوة تأثير القصة، أو إنصافها في تصويرها للأحداث. لقد عرفت كيف تحافظ على بارقة الأمل بداخلها أثناء وجودها في المعتقل، حيث أنها لم تتجاهل مظاهر الخير، التي كانت شبه نادرة، فمن الأشهر التي أمضتها داخل السجن التأديبي في (كاراغاندا)، تريد أن تمحو من ذاكرتها صور الجوع الذي كانت تتضور منه، والليالي التي أمضتها وهي تصارع البق والقمل، وتفضل أن تتذكر لفائف السجائر التي كان يقدمها لها معتقل آخر، والأغنيات التي كان يترنم بها أمامها. إلى جانب نموذجية مصيرها، وجودة شهادتها، فإن أكثر ما يلفت نظرنا ويأسرنا في شخص "بوبر- نيومان" أنها استمرت على قيد الحياة رغم السنوات السبعة العصيبة التي قضتها داخل المعسكر، رغم بشاعة وفداحة ظروفه. فكيف نجحت في ذلك؟ عندما يطرح عليها أحدهم هذا السؤال، تذكر أن هناك عدة عوامل ساعدت على ذلك. لقد كانت تتمتع بصحة جيدة في البداية، وتربت في كنف عائلة تقدّس العمل؛ ثم إن حياتها التي سبقت فترة اعتقالها والتي كانت أثناءها تقاوم الشيوعية خفية، قد علمتها الحذر من المظاهر. لقد عرفت كيف تستخدم فضولها لكشف العالم والبشر، مما ضمن لها التميّز في رواياتها، إضافة إلى ذاكرتها الاستثنائية في حفظ أدق التفاصيل. كما حافظت أيضاً على اهتماماتها الفكرية، مما سمح لها بالارتقاء عن حياتها المادية المضنية التي وجدت نفسها مغموسة

بداخلها ليلاً ونهاراً. ولكن الأمر الذي لعب الدور الأكبر هو تلك الموهبة التي تتمتع بها في بناء صداقات مع الآخرين. "شعورنا بأننا قادرون على مساعدة إنسان آخر في المعسكر هو الذي كان يمدنا بقوة داخلية في أعماقنا" [30]. وقد حظيت بتلك النعمة، إذ تقول:" كنت دوماً ألتقي بأشخاص في أمس الحاجة إليّ"[31]، من بينهم "ميلينا" التي احتلّت المرتبة الأولى.

بين كل الأشخاص الذين صادفتهم "بوبر- نيومان" كان بمقدورها التعرّف إلى الإنسان الكامن في أعماق كل فرد، دون أخذه بعواقب انتمائه إلى المذهب الفكري أو الاجتماعي الذي يجسد - أي تحاورهٌ على جميع الأصعدة. موهبتها تلك تعود إلى فترة ما قبل الحرب، فإذا التقى شيوعيان ينتميان إلى اتجاهات سياسية مختلفة، يكفي أن يتحاورا حول مواضيع شخصية، حتى يصبح أعداء الأمس أصدقاء اليوم، بعد أن كانا على طرفي نقيض، لقد اكتشفا فجأة أموراً مشتركة بينهما. و تستعيد مثالاً آخر ألا وهو صاحبة الفندق الباريسية التي تقطن في الحي الغربي، والتي وضعت لنفسها مبدأً ترفض من خلاله استقبال الأطفال الصغار في غرف فندقها، ها هي تضعف وتتراجع عن عزمها لدى رؤيتها أول طفل حقيقي. فتتعلّم "بوبر- نيومان" العبرة، وتتخذها شعاراً في حياتها، إن الالتزام السياسي لا يريك هوية الأفراد؛ فتاريخ البشر، والمجتمعات، والأنظمة، والدول، نادراً ما يكون مرتبطاً بالسياسة. ففي معسكر (رافينسبروك)، ينتابها شعور بالابتهاج لدى رؤيتها قاذفات قنابل الحلفاء تقترب من المعسكر، لأن هزيمة ألمانيا ستعجّل في سقوط النازية، ولكنها لا تستطيع الكف عن التفكير بالشعب الألماني الذي لا ينتمي إلى الفاشية لا من قريب ولا من بعيد، والذي ستسقط فوق رأسه القنابل الحارقة والقنابل الفوسفورية" [32]. وهي لا تزال بعد انتهاء الحرب ترفض أن تحاسب الفرد من خلال وظيفته- فعندما طرقت حارسة معسكر (رافينسبروك) وتدعى (لانجفيلد **Langefeld**) بابها في فرانكفورت، لم تطردها ولم تحاول الانتقام منها.

ومن المنطلق نفسه، استطاعت أن تترك حيزاً في مؤلفاتها لـ"هينز نيومان" بعد أن اكتشفت في وقت متأخر مواطن ضعفه والأخطاء التي ارتكبها، فهي الآن تُدين

أفكاره التي كان يؤمن بها، وأفعاله - مع أنه كان حب حياتها لفترة ثماني سنوات. ذلك الشيوعي المتزمّت، والعقائدي الستاليني، هو في الوقت نفسه إنسان ذو عاطفة، سريع التأثر والإحساس. تستطيع "بوبر-نيومان" اتخاذ مواقف متشددة تجاه الأفكار والأنظمة، دون أن تنسى أنها تتجسّد لدى أفراد جديرين بالحب. إن صفاء الذهن تجاه الأفكار والأنظمة لا يقف حائلاً أمام إخلاصها للأفراد. هذا هو الدرس النهائي الذي تركته لنا تلك السيدة التي ذاب مصيرها في مصير قرن كامل.

obeikandl.com